
عصام خليفة

الدكتور عصام خليفة
أحد أساتذة التاريخ في الجامعة اللبنانية

أبحاث في تاريخ شمال لبنان في العهد العثماني

الاهداء

الى دايزي

مقدمة

هذه الابحاث قدمت في مؤتمرات علمية عقدت داخل لبنان او في الخارج. وهي في الحقيقة تشكل جزءاً من عمل كبير اعكف عليه منذ سنوات. ويبدو ان الانشغالات النقابية والثقافية والاكاديمية، وحتى المادية، حالت دون اتمامي هذا العمل. فانطلاقاً من الوثائق العثمانية الموجودة في رئاسة الوزراء في اسطنبول، وبشكل خاص، انطلاقاً من الطابو دفتري، عكفت على دراسة الاوضاع الديمغرافية والاقتصادية والادارية وغيرها في المنطقة الممتدة من كسروان حتى عكار في القرن السادس عشر. وقد حاولت ان استعين بالمنهجيات الحديثة وبالتقنيات العلمية المعاصرة كالحاسوب، ولكن لم اتمكن حتى الآن من انجاز هذا العمل، لاسيما وان مئات الجداول والخرائط والمنحنيات الغرافيكية يجب ان تحضّر.

ونزولاً عند نصيحة بعض الاصدقاء، وتلبية لحاجة الطلاب الذين ادرّسهم في الجامعة اللبنانية تاريخ الدولة العثمانية، وجدت من المناسب ان اطبع هذه الابحاث الاربعة في كتاب. ويمكن للناقد المتبصر ان ينتقد بعض الترداد الموجود في هذا البحث او ذاك. الا اني آثرت ان لا اغير شيئاً ولو كان ذلك موقفاً لا يتصف بالدقة العلمية. وكذلك اعتمدت عدد الخانة او العائلة في ناحية الكورة وانفه غير ما اعتمدتها في ناحية بشرّي، ولي في ذلك اجتهادات ربما سأعرضها في وقت لاحق.

لقد قلنا في اكثر من مناسبة ان تجديد كتابة تاريخ لبنان الحديث والمعاصر تبدأ من التعمق في معرفة محتويات الارشيف العثماني بشكل خاص. ولكن قصور اغلب القيمين على مؤسساتنا العلمية وغياب اي تشجيع رسمي في مجال البحث العلمي وخاصة على صعيد العلوم الانسانية، يجعل من المحاولات الفردية مغامرة تتطلب الكثير من الاناة والصبر.

ومهما يكن من امر فان ايماننا بترسيخ الكتابة التاريخية على قاعدة علمية صلبة يحملنا على الاستمرار في العمل وتحدي كافة الصعاب. حسبنا اننا نقوم بمحاولة لها، على ما نعتقد، نكهة التجدد. ولا بد لنا من شكر جميع الذين ساهموا في بروز هذا الكتاب الى الطبع ولاسيما الصديق الفنان وجيه نحلة الذي تفضل مشكوراً بوضع تصميم الغلاف.

حدتون في احد المرفع ١٩ شباط ١٩٩٥.

عصام خليفة

التقسيمات الادارية لشمال لبنان اوائل القرن السادس عشر(*)

(٩٢٥هـ - ١٥١٩م)

ان البحث الذي اقدمه يستند على احد دفاتر(**) الطابو (ذو الرقم (٦٨)) الموجود في الباشبكنليك ارشيفي، وهو يعود الى العام ٩٢٥هـ/. وهو من الطابو دفتري مفصّل ويتناول احصاء ولاية طرابلس: سكانا (خانة ومجرد) والضرائب المفروضة على الاراضي(١) والاوقاف وغيرها.

نستطيع من خلال المعلومات الواردة في هذا الدفتر ان نتعرف على الديمغرافية التاريخية لولاية طرابلس، وعلى جوانب واسعة من تاريخها الاقتصادي، وكذلك يمكننا ان نستنتج التقسيمات الادارية لهذه الولاية. لكننا سنتوقف فقط، بحكم مؤتمرنا، عند التقسيمات الادارية في الجزء الذي يشكل قسماً من الدولة اللبنانية في الوقت الراهن.

من المسلم به عند الباحثين الذين درسوا البنية الادارية للسلطنة العثمانية، ان المقاطعات كانت مقسمة الى وحدات ادارية اكبرها الولاية او الايالة، وهذه تنقسم بدورها الى سناجق او ألوية، تتركب من اقضية ونواحي هي عبارة عن مدينة او قصبة مع ما حولها من قرى ومزارع. والولاية والسنجق او اللواء هما وحدتان اداريتان، لهما صيغة مدنية وعسكرية في وقت واحد، وامير اللواء وامير الولاية، هما من الحكام المدنيين، وهما مسؤولان عن كل الشؤون الادارية في مناطق حكمهما. ولكنهما يتوليان في نفس الوقت، قيادة القوات التي توجد في مجالهما الاداري. أما أمير اللواء فكان يمثله في باقي الاقضية والنواحي «صوباشي» أو «يوده» ويتولى شؤون الامن فيها ثم يجبي ما يخص الامير من رسوم هناك. اما القرى ففيها الزعيم والسباهي من ارباب التيمار. الاجور وكما هو واضح من الدفتر، لم تكن تدفع لموظفي ولاية طرابلس نقدا، بل يخصص لكل من له اجراء نفقة من غلة او حاصل قرية او مزرعة واحدة او عدد منها يعادل اجرته(٢).

وانطلاقا من الدفتر موضوع دراستنا، يمكننا ان نستنتج الوقائع التالية:

١ - كانت ولاية طرابلس تتألف، اضافة إلى المدينة، من:

أ - احدى عشرة - ناحية وتشكل قسماً من الدولة اللبنانية (حاليا): وهي ناحية فتوح بني رحال، ناحية جبيل، ناحية منيطرة، ناحية بترون، ناحية كورا، ناحية انفه، ناحية بشري، ناحية زاوية، ناحية ظنية، ناحية عرقا، ناحية عكار.

ب - ناحيتان يوجد بعض قراهما في لبنان الحالي: ناحية حصن الاكراد (شذرى)، وناحية مناصف (اكروم والهرمل..)

ج - اربع عشرة - ناحية تشكل قسماً من الدولة السورية حاليا هي:

(*) بحث قدم الى مؤتمر الاوضاع الادارية في الولايات العربية في العهد العثماني، تونس، ١٩٩٠.

(**) طول الدفتر ٤٧ سنتم، عرضه ١٦,٥ سنتم، وعدد اوراقه ٣٩٩ (مع لحظ بعض الاخطاء في الترقيم وبعض الصفحات البيضاء. ورقه صقيل مقوى، وخطه واضح.

ناحية صافيتا، ناحية ميعاد، ناحية خوابي، ناحية قدموس، ناحية عليقة، ناحية منيقة، ناحية كهف، ناحية قليعة، ناحية مرقب وبانياس، ناحية جبلة، ناحية بلاطنيس، ناحية صهيون، ناحية لاذقية، ناحية وادي قنديل.

٢ ـ مدينة طرابلس: كانت تتشكل من الأحياء والأزقة التالية.

أ ـ ستة عشر زقاقاً أو محلة يسكنها المسلمون، وهي التالية:

جامع كبير ـ حارة النيني ومحلات طرابلس المحروسة ـ سقاق الاكوز ـ مسجد القرشي سوق السومور ـ سقاق الطويل ـ سقاق المصري ـ سوقاق شيخ علي ـ عوينات ـ شيخ فضل الله ـ باب آق طراق، سقاق الحمص والملوخية ـ محلة بين الجرين ـ محلة عقبة الحمزاوي اوا لحمراوي ـ محلة الطواحين ـ جسر العتيق.

ب ـ محلتان، يسكنهما النصارى: هي محلة النصارى المعروفة بتبانة ـ ومحلة نصارى ويهود.

ج ـ محلة يسكنها اليهود، وهي محلة يهودي.

د ـ ثماني محلات يسكنها المسلمون والنصارى هي:

حصن صنجيل ـ حددين ـ باب المدينة ـ محلة مجاديب ـ محلة ساحة الحمصي ـ خان عديمي ـ مسجد الخشب وسقاق الخولي ـ سوق الطواقي.

وعلى صعيد مردود الضرائب المجباة من المدينة، فهي موزعة (خاص، وخاص ميرلوا طرابلس، وتيمار سياهية).

جدول بالتوزيع الطائفي لأزقة ومحلات طرابلس عام ١٥١٩م(٣)

الانتماء الديني	مسلمون	نصارى	يهود	مختلط (مسلمون ـ نصارى)
عدد المحلات أو الأزقة	١٦	٢	١	٨

٣ ـ نواحي شمال لبنان في اوائل القرن السادس عشر:

سنحاول ان نعرض التقسيمات الادارية، انطلاقا من جنوب ولاية طرابلس، ووصولا الى منطقة عكار. وسنحاول ان نذكر عدد القرى والمزارع ووضعيتها (تيمار، وقف، خاص الخ). وكذلك سنحاول ان نشير إلى الانتماءات الدينية للسكان. مع العلم ان استنتاجنا للانتماء الديني ارتكز على اسماء الناس موضوع الاحصاء، بشكل عام، مع استثناءات وردت في الدفتر وتطرقت الى الانتماء الديني للسكان الخاص في المدن.

أ ـ ناحية فتوح بني رحال: وتتألف من ٢٠ مزرعة (تيمار)، ومن ١٠ قرى (٩ منها تيمار وواحدة تيمار ووقف).

أما بالنسبة للتركيب السكاني: فتتألف من ٥ قرى سكانها نصارى، ٣ قرى سكانها من المسلمين، وقريتين سكانهما من الديانتين.

٢ ـ ناحية جبيل: يمكننا أن نورد بصددها الوقائع التالية:

أ ـ عدد المزارع فيها، ٩١ منها:

ـ ٧٦ مزرعة (تيمار)

ـ مزرعة واحدة خاص شاهي.

ـ ٩ مزارع لا ذكر لنوعيتها.

ـ ٤ مزارع وقف، وواحدة وقف وتيمار.

ب ـ عدد القرى: ٤٦ موزعة على الشكل التالي:

ـ ٣٢ قرية تيمار ـ ٣ قرى (وقف) ـ ٥ قرى (وقف وتيمار) ـ ٣ قرى (تيمار وزعامت) ـ قريتان (خاص شاهي).

أما بالنسبة للانتماء الديني لسكان هذه الناحية: فيها ٢٧ قرية سكانها نصاري و١٤ سكانها مسيحيون و٥ قرى مختلطة.

٣ ـ ناحية منيطرة: تتألف من ٣٢ مزرعة (تيمار)، و٧ قرى: ٣ منها تيمار، واحدة وقف و٣ (وقف وتيمار) على صعيد الانتماء الديني: ٤ منها مسلمون، ٢ مسيحيون، واحدة مختلطة.

٤ ـ ناحية بترون: تتألف من ١٣ مزرعة و٤٩ قرية، ١١ مزرعة (تيمار) مزرعتان (لا ذكر)، ٣٨ قرية (تيمار)، ٣ وقف، ٢ خاص، واحدة وقف وزعامت وتيمار وخمسة تيمار ووقف.

بالنسبة للانتماء الطائفي: ٢٤ قرية سكانها نصارى، ٧ قرى سكانها مسلمون، ١٨ قرية سكانها مسلمون ومسيحيون.

٥ ـ ناحية الكورا: وتتألف من ١٥ مزرعة و٣٠ قرية.

أما المزارع فمنها: ٩ تيمار، ٤ خاص، واحدة وقف، وواحدة تيمار ووقف. بالنسبة للقرى ٥ تيمار ووقف ٧ خاص، ٤ وقف، واحدة زعامت، قريتان خاص ووقف، ٣ (لا ذكر)، واحدة تيمار وخاص، واحدة تيمار وخاص ووقف.

على صعيد التوزع الديني: ١٩ قرية يسكنها نصارى، ٣ يسكنها مسلمون، ٨ قرى مختلطة.

٦ ـ ناحية انفه: تتألف من ١٩ مزرعة، ١٣ قرية.

بالنسبة للمزارع: ١٢ تيمار، ٢ وقف، ٣ وقف وتيمار، ٢ (لا ذكر).

بالنسبة للقرى: ٦ تيمار، ٢ وقف، ٢ خاص، ٢ تيمار ووقف، قرية واحدة خاص ووقف.

توزعها الديني: ١١ قرية مسيحية، واحدة مسلمة، واحدة مختلطة.

٧ ـ ناحية بشري: تتألف من ١١ مزرعة، ٣٩ قرية.

بالنسبة للمزارع ٦ تيمار، ٣ خاص، ٢ لا ذكر.

اما القرى: ١٦ تيمار ، ٢ زعامت ، ٣ وقف ، ٨ خاص ، ١٠ تيمار ووقف ، واحدة خاص ووقف ، واحدة (لا ذكر) .

لجهة التوزيع الطائفي: قريتان سكانهما مسلمون ، ٣٥ سكانها نصارى ، ٤ قرى مختلطة .

٨ ـ ناحية زاوية: تتألف من ١٨ مزرعة و٣٣ قرية .

المزارع: ٩ منها تيمار ، واحدة زعامت ، ٥ خاص ، ٣ وقف .

القرى: ١٣ تيمار ، ٧ وقف ، ٩ خاص ، ٢ تيمار ووقف ، ٢ خاص ووقف .

على صعيد الانتماء الديني: ٩ قرى مسيحية ، ١٧ قرية اسلامية ، ٨ قرى مختلطة .

٩ ـ ناحية ظنية: تتألف من ١٦ مزرعة و٢٩ قرية .

بالنسبة للمزارع (٩ تيمار ، ٣ وقف ، واحدة خاص ، واحدة زعامت ، ٢ لا ذكر)

بالنسبة للقرى (١٧ تيمار ، ٣ خاص ، واحدة وقف ، ٧ تيمار ووقف واحدة زعامت ووقف) .

على صعيد الانتماء الديني كل قرى هذه الناحية من المسلمين .

١٠ ـ ناحية عرقا: تتألف من ١٢٧ مزرعة ، ٥٣ قرية .

بالنسبة للمزارع (١٢١ تيمار ، ٢ تيمار وخاص ، واحدة تيمار ووقف ، ٢ وقف ، واحدة لا ذكر)

بالنسبة للقرى (٢٢ تيمار ، ١٦ خاص ، ٦ وقف ، ٥ تيمار ووقف ، واحدة خاص ووقف ، واحدة ملك)

الانتماء الديني:

٤٤ قرية سكانها مسلمون

٥ قرى سكانها نصارى

٤ قرى سكانها من المسلمين والمسيحيين .

١١ ـ ناحية عكار: تتألف من ٢٥ قرية منها ١٦ تيمار ، ٤ خاص ، ٣ تيمار ووقف ، ٢ وقف .
على صعيد الانتماء الديني ١٢ قرية سكانها نصارى ، ١٠ قرى سكانها مسلمون ، ٣ قرى مختلطة .

ما هي الملاحظات العامة التي يمكننا إيرادها انطلاقا من هذا العرض؟

١ ـ الاكثرية الساحقة من النواحي ، تتسمى باسم القصبة او المدينة التي تحتوي على اكبر عدد من السكان والتي تشكل قاعدة للناحية .

٢ ـ دفتر الطابو يفصل بين المزرعة والقرية ، فالقرية تكون عادة مأهولة بالسكان ، بينما المزرعة لا يسكنها بشر ، وانما يقتصر التسجيل اليها على المحاصيل ، وعلى نوعيتها (تيمار ـ زعامت ، خاص ، وقف او غير ذلك) .

٣ ـ من المرجح ان تكون الاسس العامة لهذا التقسيم الاداري ، هي الاستمرار للتقسيمات

الادارية التي كانت تعتمد في الفترة المملوكية السابقة مع بعض التعديلات المحدودة .

٤ ـ لقد استنتجنا الانتماء الديني لسكان القرى والمدن ، انطلاقا من قراءتنا المتأنية للاسماء(٤) ، فالدفتر يشير الى الانتماء الديني في مرات قليلة ، ويتجاهل ذلك في مرات كثيرة . ولما كان هناك العديد من الاسماء غير الواضحة في انتمائها الديني ، او تلك التي تحتمل اكثر من تأويل ، فمن الطبيعي ان يكون هناك بعض الخطأ . لكن هذا الأمر يتعلق بالجانب الديمغرافي اكثر مما يتعلق بموضوع بحثنا .

٥ ـ من الواضح ان دور امير اللواء في ولاية طرابلس ، كما في ولايات اخرى ، يتناول ، الى جانب جباية الايرادات الخاصة ، تأمين النظام وحسن سير نظام التيمار ، يساعده في مهمته ، كما يبدو ، مأمورون ماليون ، خاضعون للبيروقراطية المركزية .

٦ ـ ان الاكثرية الساحقة من القيمين على التيمارات والزعامات ينتمون ، من خلال اسمائهم ، إلى اصول اجتماعية تركية او على الاصح غير محلية أو عربية .

٧ ـ نلاحظ وجود اوقاف كثيرة مرتبطة بالحرمين الشريفين وجوامع طرابلس وحتى بالقاهرة ، ونسبة غير قليلة من هذه الأوقاف ، هي قرى سكانها من النصارى .

٨ ـ يدفع دير قنوبين ، حيث مقر البطريرك الماروني الفين وستماية اقجة ، تحت عنوان حماية بطريرك نصارى .

٩ ـ وجود تداخل اجتماعي بين ابناء الطوائف المتنوعة ضمن قرى مشتركة . وهذا الأمر يناقض الكثير من المقولات التي ذهب إليها العديد من المؤرخين ، الذين شددوا على مسألة الطائفة / الاقليم في هذه المرحلة من تاريخ لبنان .

١٠ ـ وجود جماعات سكانية ، خاصة في اقصى الشمال (ناحيتي عكار وحصن الأكراد) تسجل تحت اسم جماعة وليس تحت اسم قرية او قصبة (كجماعة عكار وجماعة اكراد وجماعة عرب وادي خالد ، الخ . . .)

١١ ـ انتماء الاديار النصرانية (وعددها ٤ كما يبدو) إلى أطار نظام التيمار وليس إلى اطار وقفي .

١٢ ـ تزايد الاراضي المنتمية الى فئة الخاص في النواحي السهلية او الجبلية الخصبة (كناحية عرقا وعكار وبشري والكورة) وتضاؤل هذه الفئة في المناطق الجبلية الاقل خصبا .

١٣ ـ وجود قرى ومزارع عديدة مقسمة مداخيلها على اساس الحصص والقيراط ، ان لجهة السلع العينية ام لجهة المال المفترض دفعه ، وتطبيق توزيع هذه المداخيل يفترض وجود ادارة قوية ودقيقة ومنتظمة والى حد كبير مباشرة ، الامر الذي يتناقض مع الكثير من الكتابات التي وضعها مؤرخون حول الوضعية الادارية لشمال لبنان في هذه الفترة .

١٤ ـ اذا قارنا اوضاع الادارة في شمال لبنان ، في مطلع العهد العثماني ، وفي الفترة اللاحقة لها مباشرة ، مع وضعية الادارة في اواسطه ، في نفس الفترة ، نلاحظ ان السلطة المركزية تفرض وجودها في الشمال اكثر بكثير منه في الوسط .

١٥ ـ بالنسبة لمدينة طرابلس يبرز الدفتر تفاوتا كبيرا في توزيع المداخيل. ففي الوقت الذي يبلغ (مال شاه) ٧٥٦٢٠٠ آقجة، لا يحصل امير اللواء كمداخيل خاصة له الا على ٢٥٢٤٠٠ آقجة، وتيمار السيباهية ٨٦٠٠ آقجة. وهكذا فالوضعية الضريبية لمركز الولاية يتوزع بين خاص شاه، وخاص أمير لواء من جهة، وتيمار سيباهية من جهة أخرى.

ان دراسة التقسيمات الادارية لمختلف مناطق السلطنة العثمانية من المجالات الصعبة بسبب التغيرات السياسية والادارية المستمرة. لكن العودة الى الارشيف عامة، وبخاصة الى الطابو دفتري، هي من افضل الوسائل للمعرفة الدقيقة لهذه التقسيمات.

(١) ذكر الدكتور خليل ساحلي اوغلو ان الطابو دفتري رقم ٦٨ (استانبول) يعود لسنة ٩٣٤هـ (١٥٢١م). راجع المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية، العدد الاول والثاني، يناير ١٩٩٠، ص ١٥٠.
والحقيقة انه قد ورد في الصفحة ٣٩٩ من صفحات هذا الدفتر ما يلي:
«هذا آخر ما كشفه وضبطه الفقير لله تعالى أبو الفضل محمد أدريس المستمد من اهل النورس ورفاقه مصطفى الكاتب المأمورين بكتابة الوية طرابلس وحمص وحماه في اواسط آخر الربيع سنة خمس وعشرين وتسعمائة الهجرية». اذن من المؤكد ان تاريخ اجراء هذا الاحصاء هو عام ٩٢٥هـ، استناداً للنص الموجود في نفس الدفتر، والسنة الميلادية المقابلة هي عام ١٥١٩.

(٢) راجع: Studies on Turkish. Arab relations, Istanbul, 1986, PP 247 - 248.
Prof. Dr. Afetinan, Aperçu general sur l'Histoire economique de l'Empire Turc-Ottoman Ankara, 1976, PP 22.

وساطع الحصري، البلاد العربية والدولة العثمانية، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٦، ص ٢٩.

(٣) ملاحظة: عدد ذكور مدينة طرابلس حسب الاحصاء يتوزع على النحو التالي:
المسلمون ١١٦٢
المسيحيون: ٣١١
اليهود: ٦٢
المجموع: ١٥٣٥

(٤) كان هناك تشابك واضح في الاسماء، ومثل ذلك: حسين توما علي بطرس الخ.

الديمغرافيا التاريخية لناحية الكورة وانفه(٭) في القرن السادس عشر

ان التطرق الى بحث موضوع الديمغرافيا التاريخية لمنطقة من مناطق لبنان في القرن السادس عشر هو مسألة دقيقة ومعقدة بقدر ما هي جديدة(١). ذلك ان المدرسة التقليدية في كتابة التاريخ عندنا لم تتطرق بشكل منهجي إلى هذا الجانب الأساسي المؤثّر بشكل عميق على مجمل حركة المجتمع. فلقد اكتفت بسرد الحوليات السياسية والوقائع العسكرية واخبار الأعيان ورجال الأكليروس على نحو تراكمي مكتفية بعرض فوقي لمسار احداث التاريخ. اما مدرستنا الجديدة في الكتابة التاريخية فإنها تهتم بتاريخ الناس كل الناس وليس فقط بتاريخ الاحداث، تستقرئ وتفسر التحولات الديمغرافية والاقتصادية والسياسية والثقافية وغيرها محاولة اعادة تركيب الزمن الماضي ليس فقط من خلال تراكم الأيام والاحداث وانما خاصة من خلال جداول الديمغرافيا التاريخية، وحركة الأسعار والأجور ونسب الضرائب وما إليها، أي مجمل حركة الإنسان والانتاج.

وفي هذا السياق نتطرق إلى موضوع الديمغرافيا التاريخية لناحية الكورة وانفه في القرن السادس عشر. وقبل ان نلج إلى صلب موضوعنا نرى من الواجب التوقف عند عدة مقدمات ضرورية لتوضيح إطار البحث.

أولاً: مقدمات لا بد منها:

١ ـ الأرشيف العثماني

يستند هذا البحث على وثائق موجودة في ارشيف رئاسة الوزراء باسطنبول. وتندرج هذه الوثائق، بشكل رئيسي ضمن دفترين من دفاتر الطابو مفصّل(٢)، وهما يتضمنان الاحصاءات التي قامت بها الادارة العثمانية لولاية طرابلس عام ١٥١٩ وعام ١٧٥١. والاحصاء للضرائب والسكان تقليد اداري قديم العهد اعتمدته الدولة العثمانية. وكانت العملية الاحصائية تجري كل ٣٠ ـ ٤٠ سنة(٣)، وقد أطلق عليها بنو عثمان «ويركي ونفوس صاييمي»، أي «احصاء الضرائب والسكان»(٤). وهذا الاحصاء كان يتصف بآلية خاصة ويتم على مرحلتين:

ـ الأولى حيث يتم مسح السكان وتقدير الضرائب التي تجبى منهم مع ذكر أسماء الناس وتفاصيل حاصل الضرائب وكان الدفتر يدعى لهذا السبب بدفتر المفصّل(٥). وكان يتم تدوين هذه المعلومات من قبل كتاب الولاية الذين كان يطلق على كل منهم اسم «محرر ممالك»، أو دفتر أميني، أو ايل يازجيسي.

وكان المسؤولون في كل ولاية يسهلون مهمة هذا الكاتب(٦). وأثناء التسجيل كان يتم تصنيف الأراضي إلى خاص، زعامت، تيمار، وقف واملاك. وكان كتّاب التحرير يتجولّون في

(٭) بحث قدم الى المؤتمر الذي اعد حول تاريخ الكورة ابان العهد العثماني، بترومين، ايار ١٩٩٣.

المناطق التي يوفدون إليها ويعيّنون أوضاع سكان تلك المناطق من مختلف النواحي مثل: كونهم متزوجين أو عازبين(٧) مع تحديد الديانة في أكثر الأحيان.

ثم يكلف كاتب الولاية بتلخيص الدفتر المفصّل واعداد دفتر جديد يدعى دفتر الاجمال من أجل تمييز أنواع الجبايات حسب الجهة التي خصصت لها. فيفرّق ما يعود منها للسلطان أو للخزانة الأميريّة ثم يميز ما يعود منها للأوقاف والأملاك ويوزع الباقي على الأمراء وأصحاب الزعامات وارباب التيمار مع تعيين نصيب كل واحد منهم(٨). ولا يوجد في دفتر الاجمال لا أسماء السكان ولا عددهم بشكل عام.

ودفاتر المفصل مع دفاتر الاجمال تودع في الدفتر خانة أي المكان الذي تحفظ فيه «دفاتر التحرير».

وهذه العملية مع انها تشابه احصائيات السكان التي تجري في أيامنا هذه، إلا أنه كان يترتب عليها تحديد عدد السكان القادرين والمكلفين بدفع أنواع معينة من الضرائب بنسب معينة ينص عليها في «قانونامه» كل لواء أو ولاية على حدة(٩).

إن العودة إلى الأرشيف العثماني عامة وإلى الطابو دفتري بشكل خاص هو السبيل الأبرز لتجديد كتابة تاريخ لبنان على كافة المستويات وبخاصة على الأصعدة الديمغرافية والاقتصادية والإدارية والسياسية وغيرها.

٢ ـ الديمغرافية التاريخية والأرشيف العثماني

أما بالنسبة للديمغرافيا التاريخية فإنها ترتبط كعلم هنا بالتاريخ والديمغرافية ولا يزيد عمرها عن نصف قرن. وهذا العلم نشأ في فرنسا، وقد ارتبط بهاجس معرفة وحساب الاتجاهات التاريخية للتوالد السكاني في تلك البلاد، ثم توسّع هذا العلم في انكلترا ومنها انتشر إلى بقية اصقاع العالم.

هذا العلم يدرس بنية السكان أي توزعهم لجهة العمر والجنس والزواج والنشاط المهني. كما يدرس التوزع الجغرافي للسكان ونسبة الولادات والزواج ونسبة الخصوبة، إنه يركز على المعدلات والنسب المئوية، وخوارج القسمة، واللوائح. وقد كان لبعض الباحثين الدور البارز في تطوير هذا العلم كالمؤرخ لويس هنري **Louis Henry** الذي استطاع ان يقيس بدقة وصرامة ـ بالنسبة للماضي ـ الولادات، الوفيات، نسبة الزيجات والتكاثر. وهذا العلم سمح بالمقارنة بين قرية في النورماندي مع أخرى في بريطانيا أو روسيا أو بلجيكا أو اسكندينافيا أو هنغاريا، كما سمح أيضاً بإجراء مقارنات بين فترات مختلفة في بلاد واحدة. وهكذا فعلم الديمغرافيا التاريخية سعى من خلال المنهجيات العلمية والمقاييس الصارمة، إلى إيجاد العوامل والأشكال والشروط لنمو أو ضمور الولادات ولنسب الزواج أو الوفيات الخ...(١٠).

وهكذا فإن موضوع تطور النمو السكاني بين سنة وأخرى هو من صلب اهتمام الديمغرافية التاريخية، فيتم التوسع في وصف التزايد السكاني، مثلاً، من خلال تحليل التغيرات على صعيد الولادات والوفيات والهجرات. وفي هذا السياق يتم التطرق إلى عوامل متنوعة من مثل سن الزواج، ومعايير الصحة العامة ووضعيتها. وتتم مقارنة المناطق في هذا المجال، ويتم تحليل

التحولات الديمغرافية بالترابط مع الأحداث السياسية والاقتصادية وغيرها بحيث يكون التحليل شاملاً وعميقاً. والمصلحة في استعمال الديمغرافيا التاريخية تتأتى من انها تعيد تحليل المعطيات القديمة وتتفحص المصادر التي يبدو لأول وهلة، انها غير متصلة بالموضوع.

ويساعد في هذا العلم الديمغرافيون والاقتصاديون والأطباء والاحصائيون إضافة إلى المؤرخين. كذلك يمكن الاستعانة بجغرافيين وقانونيين وانتروبولوجيين(١١).

وهناك سبيلان أساسيان للولوج إلى الديمغرافيا التاريخية؛ الأول من خلال المصادر والثاني من خلال موضوع محدد. ويكاد يكون الاحصاء الرسمي هو المصدر المفضّل للباحث، وثمة طريقتان لاستعمال احصاء رسمي بأهداف تاريخية، فاما ان نستخلص جوانب جديدة من النتائج العامة التي كتبت، وهذا يتم بالمقارنة مع مصادر أخرى، واما الانطلاق من الوثائق الأصلية للاحصاء من أجل استخلاص احصاءات غير معروفة. ومن الطبيعي حصر الدراسة في الزمان والمكان. فمكانيا يمكن أخذ منطقة إدارية معينة (كناحية الكورة وانفه مثلاً) ويمكن تحديد الزمان (كالقرن السادس عشر). ويمكن تحديد النسب المطلوبة (المتزوجون والعازبون، الدين، الخصوبة السنوية الخ . . .).

وهكذا فالدراسة لمناطق صغيرة، في مجال الديمغرافيا التاريخية، تأخذ بعين الاعتبار ترابط هذه المناطق مع جوارها، مع الحذر من ان النتائج يمكن ان يتم التوصل إليها في حيّز جغرافي معيّن، لا يمكن، بالضرورة، ان تعمم على مناطق أخرى. فكل منطقة تتأثر بإطارها الجغرافي، وبوضعية السكن، وتتأثر بالأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والدينية، إضافة الى الأوضاع السياسية والعسكرية والصحية. وان تفاعل هذه العوامل مجتمعة هي القاعدة الأولية لفهم تطور الديمغرافيا التاريخية لكل شعب(١٢).

ولئن كان من المسلّم به ان المادة الأساسية لعلم الديمغرافيا التاريخية هي الاحصاءات السكانية (رسمية كانت أم خاصة)، ولئن كان من البديهي التأكيد بأن الدول تدقق، اجمالاً، في وجود كل أسماء السكان، لأنها حريصة على الدقة في جمع كل الضرائب، وبرغم الأهمية البالغة التي يسبغها المؤرخون المختصون على الاحصاءات العثمانية بالمقارنة مع غيرها من الاحصاءات(١٣)، برغم كل ذلك يبقى هناك بعض المصاعب أمام الباحث المدقق:

- ليس واضحاً بشكل جلي سن النضوج للذكر في المناطق العثمانية مع العلم ان برقان يشير إلى سن ١٢ سنة كمدخل لهذا التصنيف(١٤).

- هناك نقاش واسع حول العدد الفعلي لأفراد الأسرة (الخانة) رغم ما ذكره برقان نفسه، «فلكي نعرف العدد العام للسكان - في الدولة العثمانية - نضرب عدد الذكور بالرقم ٥، مع التحفّظ ازاء هذا الرقم من الوجهة العلمية. فهذا الرقم يختلف حسب المناطق والطبقات الاجتماعية»(١٥).

- يمكن، لأسباب مختلفة، أن يكون عدد من السكان لم يخضع للتعداد بسبب الاختباء. كما ان بعض فئات وموظفي الدولة لم يكونوا يخضعون للاحصاء. من هنا يطرح برقان زيادة ١٠٪ على الرقم العام وذلك لاعتبارات اصطلاحية تقريبية لا ترتكز على اعتبارات علمية دقيقة(١٦).

- الأسماء(١٧) في الأرشيف العثماني تتضمن الأسم الأول مع اسم الأب. ولا إشارة للعمر، ولا وجود لأسماء النساء، ولا وجود لطبقة المهن بشكل دقيق، على الأقل، بالنسبة للدفترين موضوع دراستنا. وانطلاقاً من ان تقدُم علم الديمغرافيا التاريخية يجب أن يرتبط بالجهد المستمر للباحثين في مجال تكييف المناهج ضمن خصوصيات المصادر المعتمدة فقد حاولنا أن نستفيد من المعلومات الواردة في الطابو دفتري ضمن عدة مجالات. ولكننا لا نزعم، بأي حال من الأحوال، ان هدفنا هو قول الكلمة النهائية في مسائل الديمغرافيا التاريخية - بالنسبة للكورة خاصة وشمال لبنان عامة في القرن السادس عشر، بل ان الهدف الأكثر تواضعاً هو سعينا لوضع بعض النقاط على بعض الحروف واستعمال تقنيات بحثية حديثة في مجال الديمغرافيا التاريخية على بعض القضايا والاحصاءات التي استطعنا ان نحصل عليها من خلال الدفترين ٦٨ و٥١٣ والموجودين في ارشيف رئاسة الوزراء باسطنبول، مع الحرص على التأكيد ان الأساس في نقد هذين المصدرين هو وجود مصادر أخرى للمقارنة وهذا أمر غير متوفر حتى الآن، وعلى الأرجح فإنه من الصعب أن يوجد في المستقبل.

٣ - تحديد الإطار الجغرافي لناحية الكورة وانفه في القرن السادس عشر

كانت الدولة العثمانية تتشكل من وحدات إدارية أكبرها الولاية أو الايالة، وهذه تنقسم بدورها إلى سناجق أو الوية، وهذه تتركب من أقضية ونواحي. والناحية اجمالاً هي عبارة عن مدينة أو قصبة وما حولها من قرى ومزارع(١٨).

ومنذ السنوات الأولى لاحتلال المشرق العربي من قبل العثمانيين كانت ولاية طرابلس تنقسم إلى مجموعة من النواحي تبدأ من فتوح بني رحال في الجنوب إلى اللاذقية وطرطوس في الشمال. ويبدو ان من خصائص التقسيمات الإدارية العثمانية سرعة التغير بين فترة وأخرى. ففي حين يشير الطابو دفتري رقم ٦٨ إلى وجود ٢٦ ناحية في ولاية طرابلس(١٩)، يذكر الطابو دفتري رقم ٥١٣ وجود ١٤ ناحية(٢٠). ويهمنا في هذا السياق ان نشير إلى الملاحظات التالية.

١ - في الاحصاء الأول يطلق على طرابلس صفة الولاية، والقانون نامه الموجود في مطلع الدفتر ٦٨ هو «قانون نامه ولايت طرابلس».

٢ - الاحصاء الآخر، الذي أطلعنا عليه (الدفتر ٥١٣) يطلق على طرابلس صفة اللواء، والقانون نامه الموجود في مطلع الدفتر هو «قانون نامه لواء طره بلوس».

٣ - من المعروف ان كل ناحية تتألف من قرى ومزارع. ويلحظ الدفتر، بعد ذكر اسم القرية أو المزرعة، الناحية التي تنتمي إليها هذه أو تلك.

٤ - بعد أن يعطى عنواناً عاماً (ناحية كورا وانفه تابع طرابلس) يطلق الدفتر ٦٨(٢١) على القرى التالية نوعين من الصفات أو بالأحرى نوعين من التبعية:

أ - القرى والمزارع التابعة للكورا: بطرام، بدبا، بشمزين، بترومين، مزرعة شرابعه، بصرما، راسمسقا، برسا، قالحات، مزرعة عرقالحات، بتوراتيج، مزرعة زاوية، مزرعة هاب، دده، (مزرعة)(٢٢) أمير يعقوب دده، كفرحزير، عفصديق، بكمرا، فيع، نخلا،

بكفتين، بجورا، عابا، دار شمزين، كفر قاهل، كفر عقا، اميون، مجيدل قاش، مزرعة عين قاش، كفر صارون، كسبا، الكفرة، ناووس، بزيزا، مزرعة رام بزيزا، ط بعشتر (كذا)، مزرعة بعرزون، مجدل ط بعشتر، مزرعة لحصات، مزرعة حصن صنجيل، مزرعة دير البلمند، مزرعة اميون، دير بكفتين. فيكون المجموع ٣٠ قرية، و١٢ مزرعة، ودير واحد ملحوظ كدير البلمند ذكر مع المزرعة.

ب - القرى والمزارع التابعة لانفه: برغون، بيت بهم، مزرعة قلمون ودير قلمون[٢٣]، مزرعة بواجه، ومزرعة الهري، مزرعة حامات المعروف مرضومط (كتبت برطوميط)، مزرعة دير طمرا، انفه[٢٤]، مزرعة التا، مزرعة عبدوش، مزرعة سريا[٢٥]، مزرعة القطربية، مزرعة الزكرون، مزرعة بديع، مزرعة شكا، مزرعة أرعربتا، مزرعة صلعاتا، مزرعة كفرونا[٢٦]، بتعبورة[٢٧]، كبا، راس انحاش، مزرعة درغيتا، حامات، كفتون، كفرحاتا، مزرعة كفرتا، بيت يايل (بدنايل)، اجدعبرين، مزرعة كلباتا، بعقميتور، مزرعة معيصرة، دير كفتون[٢٨].

يكون المجموع ١٣ قرية، ١٨ مزرعة[٢٩]، دير واحد مستقل ودير آخر ملحوظ مع مزرعة قلمون.

ج - هكذا يكون العدد الإجمالي للقرى ٤٣ قرية مأهولة، و٣٠ مزرعة مع لحظ وجود ديرين مستقلين هما دير كفتون ودير بكفتين، وديرين مرتبطين باسم المزرعة: مزرعة دير البلمند، ومزرعة دير قلمون.

٥ - إذا انتقلنا إلى الدفتر ٥١٣ فإنه يضع في الصفحة ٤٩ فهرسا بأسماء قرى ومزارع ناحية كورا وانفه، لكن العدد الموجود في الفهرس (٣٠ قرية و١٩ مزرعة) لا ينسجم مع العدد الفعلي المسجل للقرى والمزارع وهي على التوالي: نخله، فيع، بترومين، بشمزين، عفصديق، بقاع اميون[٣٠]، برسا، مزرعة كفر دوز، قلحات، مجدل طعشتار، الكفر، بتوارتيج، بتعبوره، بيت يايل (بدنايل)، كسبا، نفس انفه، كفر حاتا، بصرما، كفتون، ناووس، بزيزا، كفر عقا، بكفتين، بكمرا، كفريا[٣١]، عابا، كفر صارون، مزرعة ورد، مزرعة زاوية شمعة، مزرعة براحة، مزرعة كفرتا، مزرعة حددي، مزرعة بيت بهم، مزرعة ماماي، مزرعة معيصرة، مزرعة سعاف، مزرعة زغريتا، مزرعة عين قاش، مزرعة حامات، مزرعة حصن سنجيل، مزرعة دير كفتون، مزرعة قطربيه، مزرعة كفرون، راس انحاش، كفر قاهل، حامات، دده، مزرعة زكرون، طرب عشتار، مجدل قاش، اجد عبرين، مزرعة حلبايا[٣٢]، برغون، كورا، بدبا، راس مسقا، برانفه، مزرعة صرما، مزرعة عبدوش، مزرعة دير البنات، مزرعة مريح، مزرعة حامات[٣٣]، مزرعة قلحاث، قلمون، مزرعة كبا، مزرعة دير البلمند، دير طمره، بطرام، اميون، مزرعة ميعاد، مزرعة درعنب، كفرحزير.

٦ - يكون مجموع القرى، تبعاً لاحصاء ١٥٧١، ست وأربعين قرية ومجموع المزارع ثلاثون. وهذا يعني زيادة ثلاث قرى عن احصاء ١٥١٩[٣٤]. مع استمرار وجود ثلاث

مزارع بأسماء اديرة: مزرعة دير كفتون، ومزرعة دير البنات، ومزرعة دير البلمند. أما دير بكفتين، فلم يرد ذكره وكذلك دير القلمون.

٧ - ان تناقض عدد القرى والمزارع الواردة في الفهرست مع العدد الفعلي المسجل في الدفتر يحملنا على طرح جملة تساؤلات منها:

- هل ان الاحصاء المسجل يعود لفترتين، ولو متقاربتين، وليس لفترة واحدة، سيما وان قرى ناحية كورة وانفه مفصولة ضمن مجموعتين من صفحات الدفتر (من صفحة ٥٠ حتى صفحة ٧٣، ومن صفحة ٢٥٩ حتى صفحة ٢٧٢)؟
- هل ان كاتب الدفتر فصل بين انفه والكورة، برغم ان العنوان للفهرست هو ناحية كورا وانفه؟
- كيف يمكن تفسير وجود أسماء لمزارع جديدة؟
- كيف يمكن أن نفسر ورود دير أمير يعقوب في الفهرست وعدم وروده لاحقاً في المتن، وكذلك كيف يمكن أن نفسّر ورود اسم قرية بكفتين دون ورود دير بكفتين كما هو ملحوظ في الفهرست أيضاً؟

ومهما يكن من أمر فقرى ومزارع ناحية الكورة وانفه تنتشر ضمن اطار منطقة طبيعية واضحة المعالم:

- في الجنوب خط يسير بموازاة نهر الجوز حتى نقطة تقع جنوب قرية المجدل الحالية.
- في الشرق ثمة خط يبدأ من جنوب شرق المجدل باتجاه بزيزا، شرق عين عكرين، ليصل إلى شرق رشدبين وكسبا، ويسير هذا الخط بموازاة نهر قاديشا أو أبو علي حتى نقطة تقع شمال شرق المعيصرة.
- في الشمال ثمة خط يمتد من شمال بكمرا، شمال راسمسقا، شمال المعيصرة حتى نهر أبو علي.
- وفي الغرب البحر الأبيض المتوسط.

والملاحظ ان هذا التقسيم الإداري الذي يعود ربما للمرحلة ما قبل العثمانية لا يزال معتمداً في خطوطه العامة حتى اليوم. فإذا استثنينا شكا وراس نحاش والهري وكبا وحامات ووجه الحجر وصلعاتا، التي ضمت إلى قضاء البترون، فإن بقية المنطقة التي يطلق عليها اليوم قضاء الكورة تكاد تتطابق مع جغرافية ناحية الكورة وانفه في القرن السادس عشر.

٤ - أهمية ناحية الكورة وانفه على صعيد الضرائب والانتاج:

حسبنا في هذا المجال أن نشير إلى بعض الأرقام التي تدل على غنى هذه الناحية في هذه المرحلة.

أ - عام ١٥١٩ كانت هذه الناحية تقدِّم ضرائب متفرقة (٦٠٦١٧٤ آقجة) وتقدِّم للأوقاف (عددها ٢١ وقفا) ما لا يقل عن ٩٤١٩٠ آقجة. أي ما مجموعه ٧٠٠٣٦٤ آقجة.

ب - عام ١٥٧١ كانت الكورة وانفه تدفع ضرائب سنوية ٨٦٨١٩٤ آقجة، وتدفع جزية على

النصارى ٢٧٩٤٨٥ آقجة، وتدفع للأوقاف (عددها ١٧) مبلغا لا يقل عن ٣٥٥٤٠٠ آقجة أي ما مجموعه ١٥٠٣٠٧٩ آقجة(٣٥).

ج ـ هذه المبالغ هي بالغة الأهمية إذا قارناها بموازنة الدولة العثمانية من جهة، وبقيمة بعض السلع الأساسية من جهة ثانية (راجع الجدول رقم ١ الجدول رقم ٢).

د ـ كانت قرى الكورة موزعة بشكل رئيسي بين الخاص والتيمار، وعام ١٥١٩ كانت قرى هذه الناحية ومزارعها موزعة على أكثر من ٣٣ تيمارجيا تقريباً أغلبهم من أصل تركي على ما تدل اسماؤهم. بينما تناقص عدد التيمارجيين إلى أقل من هذا العدد بكثير عام ١٥٧١ بينما تزايدت القرى المحسوبة على الخاص الشاهاني.

هـ ـ عام ١٥٧١ يورد الاحصاء، في الناحية موضوع بحثنا، وجود ٩٧ طاحونة، و٦٨ معصرة زيت و٧٥ معصرة عنب، ومجموع دواليب الحرير لا يقل عن ٩٧ دولاباً (راجع الملحق رقم ٣).

و ـ كانت ناحية الكورة وانفه تنتج كميات لا بأس بها من الحنطة والشعير وغيرهما من الحبوب، وكانت تربى المعزة والنحل في أغلب القرى والمزارع.

كان لا بد من هذه النظرة السريعة للجانب الاقتصادي للتدليل على أن القاعدة المادية للحياة السكانية كانت مؤاتية جداً، وهذا ينعكس ولا ريب على الكثافة الديمغرافية في هذه الناحية.

ثانياً: الديمغرافيا التاريخية لناحية الكورة وانفه في القرن السادس عشر

قبل ان نبادر إلى تطبيق التقنيات التي عرضناها سابقاً، في مجال الديمغرافيا التاريخية، على ناحية الكورة وانفه في القرن السادس عشر، لا بد لنا من ايراد بعض الملاحظات الأساسية:

١ ـ في الاحصاء الأول لا يفصل الطابو دفتري بين المسلمين والمسيحيين مع استثناءات قليلة (في المدن بشكل خاص). ويعرض الدفتر، في قرى الناحية موضوع دراستنا أسماء الذكور الناضجين على نحو مختلط. لذا كان علينا أن نستنتج، على نحو تقريبي الانتماء الديني انطلاقاً من مدلولات الأسماء. وهذا عمل يتطلب الكثير من الدقة والحذر، واحتمالات الخطأ، خاصة في القرى المختلطة.

٢ ـ في الاحصاء الثاني ثمة فصل بين المسلمين والمسيحيين. فالمسلمون تعرض أسماؤهم أولاً، في القرى المختلطة، ثم تعرض أسماء المسيحيين لاحقاً تحت عنوان «جماعت نصارى».

٣ ـ رب قائل ان معرفة النصارى في القرى يمكن الوصول إليها في الاحصاء الأول انطلاقاً من إشارات الجزية على الرؤوس. لكن يبدو ان دفع الجزية عند دخول العثمانيين كان يقوم به المرجع الديني (البطريرك) بشكل جماعي. وهذا ما تأكد لنا من خلال تدفيع بطريرك الموارنة الذي كان يسكن في هذا الوقت، بدير قنوبين، ضريبة سميت جزية نصارى.

أما بالنسبة للاحصاء الثاني فإن الجزية في كل قرية تفرض على كل فرد نصراني على حدة وهي تتباين بين قرية وأخرى.

٤ ـ لا تتطرق دفاتر الطابو مفصّل التي أطلعنا عليها إلى تحديد الانتماءات المذهبية للسكان. فهي لا تذكر مثلاً الانتماءات السنية أو الشيعية أو الإسماعيلية أو العلوية أو غيرها من جهة، كما لا تذكر الانتماءات المذهبية عند النصارى من جهة أخرى (روم ملكيين، موارنة، يعاقبة الخ...).

٥ ـ في ضوء ما تقدم لا يمكننا الجزم المطلق في الانتماء المذهبي للمسلمين أو النصارى الموجودين في قرى ناحية الكورة وانفه في هذه الفترة.

٦ ـ لقد حاولنا الاستعانة ببعض المصادر الأخرى كتقارير اليانو ودنديني(٣٦) التي تعود إلى نفس المرحلة، وحاولنا استطلاع بعض الحوليات وبخاصة تاريخ البطريرك الدويهي، فلم نتمكن من تلمس أسانيد علمية يقينية تحملنا على الجزم في هذا الموضوع.

٧ ـ اعتمدنا ما طرحه المؤرخ التركي الكبير عمر لطفي برقان في مسألة ضرب عدد الذكور بخمسة كمعدل عام لعدد افراد الأسرة، مع موافقتنا على ضرورة التحفظ في مدى دقته العلمية. ولم نجد ضرورة إلى زيادة العشرة بالمئة التي لحظها هذا المؤرخ على العدد العام لسد بعض ثغرات الاحصاء خاصة لمن تهربوا منه من أبناء البلاد أو من المرتبطين بالتشكيلات العسكرية والإدارية العثمانية.

في ضوء هذه الملاحظات الأساسية، وفي ضوء تقنيات البحث في مجال الديمغرافيا التاريخية التي عرضناها سابقاً، ننتقل إلى عرض بعض المعطيات الإحصائية التي نستخلصها من الاحصاءين العثمانيين.

١ ـ قرى ناحية الكورة وانفه والانتماء الديني للسكان:

أ ـ الوضعية في الاحصاء الأول: يبين هذا الاحصاء ان هناك ثلاثة أنواع من القرى التي عددها ٤٣.

ـ **القرى المختلطة**: وعددها ٩، وهي بشمزين، برسا، بتوراتيج، دده، كفر حزير، أجد عبرين، بكفتين، كفر قاهل، كفر عقا.

ـ **القرى التي يسكنها مسلمون فقط** وعددها ٤، وهي بترومين، راسمسقا، راس انحاش، نخلا (النخلة).

ـ **القرى التي يسكنها مسيحيون فقط** وعددها ٣٠، وهي:

بطرام، بدبا، بصرما، قالحات، (قلحات) برغون، بيت بهم، قلمون، انفه، بتعبورة، كبا، حامات، كفتون، كفر حاتا، بيت يايل (بدنايل)، عفصديق، بكمرا، فيع، بجورا، عابا، دار شمزين، اميون، مجيدل قاش، كفر صارون، كسبا، الكفرة، ناووس، بزيزا، طبعشتر، مجدل طبعشتر.

ب ـ الوضعية في الاحصاء الثاني: يتبين من هذا الاحصاء ان قرى هذه الناحية تتوزع على النحو التالي:

ـ **القرى المختلطة** وعددها ١٦، وهي نخلا، بشمزين، دده، برسا، مجدل طبعشتر، بتوراتيج، انفه، ناووس، كفر عقا، كفر حزير، بكفتين، بكمرا، كفر قاهل، طرب عشتار، اجد عبرين، قلمون.

ـ **القرى التي يسكنها مسلمون فقط** عددها ٤، وهي: بيت رومين، راس انحاش، راسمسقا، برانفه.

ـ **القرى التي يسكنها مسيحيون فقط**، وعددها ٢٤، وهي: فيع، عفصديق، بقاع اميون، قلحات، الكفرة، دار بشمزين، بتعبورة، بيت يايل (بدنايل)، كسبا، كفر حاتا، بصرما، كفتون، بزيزا، بطرام، اميون، كفر صارون، حامات، دده، مجدل قاش، برغون، كورا، بدبا، دير طمرا.

ماذا نستنتج من المقارنة بين وضعيات القرى في الاحصاءين.

١ ـ تحولت قرية نخلا التي كان يسكنها المسلمون فقط إلى قرية مختلطة.

٢ ـ تحولت ٥ قرى كان يسكنها المسيحيون فقط إلى قرى مختلطة وهي مجدل طبعشتر، انفه، ناووس، بكمرا، طرب عشتار، قلمون.

٣ ـ زادت القرى التي يسكنها مسلمون قرية واحدة هي برانفه، مع العلم انها لم تكن مذكورة في الاحصاء الأول.

٤ ـ برغم تزايد القرى المختلطة بين الاحصاءين فإن عدد المسلمين الذكور كان تزايده بطيئاً جداً في هذه القرى، فبعد ان كان عدد الذكور المسلمين ٢٥٥ ذكراً عام ١٥١٩، فلم يزد عام ١٥٧١ عن ٢٦٢ ذكراً.

٥ ـ بالعكس من ذلك فإن عدد المسيحيين في هذه القرى عينها تضاعف ثلاث مرات تقريباً إذ تصاعد من ٣٨٧ ذكراً عام ١٥١٩ ليصبح ١٠٠٥ ذكور عام ١٥٧١.

٢ ـ في العدد العام للسكان في ناحية الكورة وانفه ونسبة الزيادة بين ١٥١٩ و١٥١٧.

إن تدقيقا وجمعا للاعداد الموضوعة في الاحصاء الأول للذكور في هذه الناحية يعطينا رقماً عاماً يصل إلى ١٨٥٤ ذكراً عام ١٥١٩.

وفي العام ١٥٧١ يصل عدد الذكور إلى ٢٦٢١ تقريباً. وبذلك تكون الزيادة العامة بين الاحصاءين ٧٦٧ ذكراً. وإذا ما حاولنا ان نحلل هذه الزيادة على الصعيد السنوي، فإن نسبة الزيادة السنوية هي في حدود ٦,٦٨ بالألف. (راجع الجدول رقم ٤).

وإذا طبقنا نظرية المؤرخ عمر لطفي برقان (أي ضرب عدد الذكور به ٥ لمعرفة العدد العام) يصبح عدد سكان ناحية الكورة وانفه على النحو التالي:

عام ١٥١٩: عدد الذكور ١٨٥٤ × ٥ = ٩٢٧٠ نسمة

عام ١٥٧١: عدد الذكور ٢٦٢١ × ٥ = ١٣١٠٥ نسمة

وتكون الزيادة العامة للنفوس ٣٨٣٥ نسمة تقريباً.

ما هي الملاحظات العامة التي يمكننا ايرادها في هذا السياق؟

١ ـ في الاحصاء الأول كانت الأهمية السكانية للقرى تتدرج على الشكل التالي بالنسبة للخمسة الأول:

اميون فيها ١٨٣ ذكراً.

بطرام فيها ١٧٥ ذكراً.

بشمزين فيها ١٤٠ ذكراً.

انفه فيها ١٣٣ ذكراً.

بصرما فيها ١٠٢ ذكراً.

٢ ـ في الاحصاء الثاني تغيرت التراتبية وأصبحت على النحو التالي:

انفه ٣٣٥ ذكراً.

اميون ٣١٢ ذكراً.

كفر حزير ١٦٠ ذكراً.

بطرام ١٥٠ ذكراً.

كسبا ١٣٢ ذكراً.

٣ ـ على صعيد الزيادة أو الخصوبة السنوية كانت قلحات هي الأولى ٢٦,٣٠ بالألف وتليها انفه حيث الزيادة السنوية بلغت ١٧,٩٢ بالألف ومن ثم كفر حاتا ١٧,٧٧ بالألف بعدها جاءت مجدل قاش ١٦,٠٢، فبيت يايل (بدنايل) ١٥,٧١ وبتعبورة ١٤,٨٦ فبرغون ١٤,٩٨.

٤ ـ ان المقارنة بين الاحصاءين تبين ان بعض القرى تناقصت بدل ان تزيد، ومن أبرز القرى التي يمكننا ايرادها في هذا السياق: راس انحاش، تناقص سكانها سنوياً بنسبة ١٦,٦٩ ـ ناووس تناقصت ٦,٤٤ ـ سنوياً.

بطرام ودار بشمزين تناقصتا بنسبة ٢,٩٦ ـ سنوياً، اما بشمزين فتناقصت بنسبة ١,٥٧ ـ.

٥ ـ إذا حاولنا ان نقوم بمقارنة مع مناطق أخرى من السلطنة العثمانية فماذا يمكننا أن نسجل على صعيد التزايد السكاني ونسبته؟

لقد سجل المؤرخ التركي عمر لطفي برقان تناقصا في عدد سكان دمشق وحلب خلال القرن السادس عشر. فحلب تناقص عدد سكانها من ٥٧ ألف عام ١٥١٠ ـ ١٥٣٠، إلى ٤٦ ألفاً عام ١٥٨٠. ودمشق تراجعت ١٤ ألفاً في نفس الفترة، فبعد ان كانت ٥٧ ألفاً وصلت إلى ٤٣ ألف نسمة[٣٧]. أي أن حلب تناقصت ٣,٠٥، ودمشق ٤,١٨.

أما النسبة السنوية للزيادة في المدن الأوروبية - باستثناء روسيا - فقد كانت أثناء القرن السادس عشر والتي بلغت ٠,٢١٪(٣٨). أما في مقاطعة Anatolie فقد بلغت الزيادة بين احصاء ١٥٢٠ واحصاء ١٥٨٠ ما نسبته ٧٤,٤١٪، ومدينة بورصة تضاعف عددها في نفس الفترة، وبعض المدن المتوسطة كالبندقية ونابولي وميلانو وروما فقد تزايد سكانها في الفترة نفسها ٦٦,٨٣٪ حسب دراسات فرنان بروديل(٣٩).

٣ - في العدد العام للنصارى في ناحية الكورة وانفه ونسبة الزيادة بين ١٥١٩ و١٥٧١

يبين الاحصاء الأول ان مجموع النصارى عام ١٥١٩، في الناحية موضوع بحثنا، هو ١٥٠٦ ذكراً ناضجاً.

والاحصاء الثاني عام ١٥٧١ يشير إلى ان عدد النصارى وصل إلى ٢٢٧٩ ذكراً ناضجاً. أي ان الزيادة العامة بلغت ٧٧٣ ذكراً ناضجاً. (راجع الجدول رقم ٥).

ما هي الملاحظات التي يمكننا تسجيلها في هذا السياق؟

أ - إن نسبة الزيادة السنوية، انطلاقاً من الزيادة المذكورة أعلاه، بلغت ٧,٩٩ بالألف تقريباً.

ب - إذا ما طبقنا نظرية برقان زاد عدد نفوس المسيحيين، في هذه الناحية، من ٧٥٣٠ نسمة إلى ١١٣٩٠ نسمة. أي بزيادة ٣٨٦٥ نسمة تقريباً.

ج - إن أهم القرى التي عرفت تزايداً سكانياً بارزاً عند النصارى هي التالية:

قلحات ٢٦,٣٠٪ (سنوياً وبالألف)، أجد عبرين ١٩,٠٤ (سنوياً وبالألف)، كفرحاتا ١٧,٧٧٧ (سنوياً وبالألف)، انفه ١٦,٤٠ (سنوياً وبالألف)، مجدل قاش ١٦,٠٢ (سنوياً وبالألف).

د - أبرز القرى التي عرفت تناقصاً سكانياً نصرانياً واضحاً، بين الاحصائين، هي التالية:

قلمون ٢٠,٩٠ - (سنوياً وبالألف)، ناووس ١٦,١٦ - (سنوياً وبالألف)، بطرام ٢,٩٦ - (سنوياً وبالألف)، دار بشمزين ٢,٩٦ - (سنوياً وبالألف)، بشمزين ١,٨٣ - (سنوياً وبالألف)، بزيزا ٠,٤٦ - (سنوياً وبالألف).

هـ - إذا حاولنا تفسير التناقص السكاني النصراني في بعض القرى فإنه يمكننا أن نعيد ذلك إلى جملة أسباب منها ما أوردته حوليات المؤرخين وبخاصة الدويهي عن الجراد والغلاء الذي حصل على امتداد فترات عدة ابّان القرن السادس عشر وبخاصة في الأعوام ١٥١٩، ١٥٢٤، ١٥٢٦، ١٥٣٩، وفي سبعينات ذلك القرن. ففي العام ١٥١٩ «زحف الجراد في بلاد الشام... وصار الغلاء العظيم حتى ان شنبل القمح بلغ في طرابلس مايه دينار» وكذلك ازداد سعر الحيوانات. وفي عام ١٥٢٤ زحف الجراد في بلاد الشام وأكل الزرع ثم تبعه الغلاء والنقص(٤٠). وكان من جراء ذلك ارتفاع أسعار المواد الغذائية بحيث زاد سعر شنبل القمح ٢٧٥٪ عما كان عليه عام ١٥١٣. وكذلك في عام ١٥٥٧ عرفت المنطقة ارتفاعاً كبيراً في الأسعار، ويعيد الدويهي أسباب هذا الغلاء إلى الحروب

وعمليات الغزو والنهب والقتل التي مارستها شعوب «الكورج» في المنطقة وما رافقها من حالات ذعر وعدم استقرار.

وفي سبعينات القرن السادس عشر عرفت مناطق جبل لبنان، بما فيها المناطق الشمالية، حدثين خطيرين اثرا ولا شك على الأوضاع الديمغرافية.

الأول: انتشار مرض الطاعون. وفيه يقول البطريرك مخايل الرزي إلى الكرسي البابوي(٤١): «وثانياً لأجل الطاعون لأننا مختشين كثير منه، وانه ابتدا في بلاد مصر وأعمالها، وهنا جت أشايره، والدليل على ذلك ان العادة، ان كان الطاعون، أولاً يجي الجدري وانه مملية البلاد منه».

الثاني: توزع القشلق على بلاد الشام. ويذكر الدويهي(٤٢) ان القشلق فرض «على أهالي جبة بشري واحد وعشرين ألف سلطاني، والسلطاني ثلثين القرش، فنهبت الدولة البلدان وسلبوا سايقتها واضاموا الخلق فوق الحد حتى كان الناس تطلب الموت لذاتها، وخلت فيها ضياع كثيرة، مثل سبعل وبنهران ومتريت والناووس... ورشدبين...».

هكذا يتوضح مثلاً كيف ان قرية ناووس تراجع سكانها بين الاحصاءين وكيف ان قرى أخرى تناقص سكانها بدلاً من أن يتزايدوا، هذا بالإضافة الى وجود أسباب أخرى يمكن أن نتطرق إليها لاحقاً.

لكن من الواضح أن هناك تزايداً واضحاً مضطرداً في عدد السكان المسيحيين. وبالنسبة لهذا التزايد الديمغرافي يمكن طرح جملة أسئلة:

- هل يمكن إعادته فقط إلى التزايد في الولادات نسبة للوفيات؟ أم يمكن تفسيره بنزوح مسيحيين إلى هذه المنطقة من مناطق أخرى خاصة من الجبال بسبب العوامل الطبيعية والاقتصادية وربما غيرها؟
- ما هو دور البنية العائلية الداخلية المسيحية في هذه العملية؟
- وإذا كان هناك تأثير للأوبئة والأمراض والزلازل والجراد، فلماذا تفاوت هذا التأثير بين القرى الإسلامية والمسيحية؟

٤ - في العدد العام للمسلمين في ناحية الكورة وانفه ونسبة الزيادة بين ١٥١٩ و١٥٧١:

يبين الجدول رقم ٦ ان مجموع المسلمين الذكور الناضجين في الناحية المذكورة آنفاً هو ٣٤٦(٤٣)، انطلاقاً من الاحصاء الأول، وفي الاحصاء الثاني يصل عددهم إلى ٣٤٠ ذكراً ناضجاً. هذا يعني وجود تراجع بنسبة ٠,٣٣ - سنوياً وبالألف.

أي ان مجموع النفوس المسلمين في هذه الناحية عام ١٥١٩، كان ١٧٣٠ نسمة، وعام ١٥٧١ أصبح هذا المجموع ١٧٠٠ نسمة.

ما هي الملاحظات التي تستوقفنا في مسار التحولات الديمغرافية التي يبينها الجدول رقم ٦.

أ ـ بالنسبة **للقرى التي كانت مسكونة فقط بالمسلمين** يتبين:

ـ إن قرية بترومين تراجع فيها عدد المسلمين من ٤٩ إلى ٤٤ ذكراً.

ـ وإن راس انحاش انخفض سكانها من ١٢ الى ٥ أشخاص.

ـ وكذلك قرية نخلة فبعد ان كان فيها ١٦ ذكراً ناضجاً أصبح عدد ذكورها الناضجين ١٣.

ـ وحدها راسمسقا تزايد عددها ما يقارب الضعف أي ما نسبته ٩٧ , ١١ بالألف سنوياً.

أما بالنسبة **للقرى التي كانت مختلطة في الاحصاء الأول** فيمكننا تسجيل ما يأتي:

ـ في أجد عبرين تناقص عدد المسلمين وكذلك في بشمزين وفي بكفتين وفي ددة وكفر حزير وكفر عقا، وعرفت كفر قاهل تراجعا غير عادي بلغ ما نسبته ٢٢ , ٨ ـ بالألف سنوياً.

ـ وحدها بتوراتيج، بين القرى المختلطة، لم تعرف زيادة ولا نقصانا فبقي عدد الذكور المسلمين ٢٠ في الاحصاء الثاني كما كان في الاحصاء الأول.

ـ على صعيد الانتشار الإسلامي في القرى التي كانت مأهولة بالمسيحيين فقط نلاحظ تواجداً لافتاً في انفه (٢٥ ذكراً)، وطرب عشتار (١٣ ذكراً).

ما هي العوامل التي أدت إلى هذه الوضعية الديمغرافية لدى مسلمي ناحية الكورة وانفه؟

بادئ ذي بدء يجب الإشارة إلى ان هذه الظاهرة لم تكن مقتصرة على مسلمي الكورة، فإن دراساتنا عن طرابلس وناحية الزاوية مثلاً تبين حصول تراجع أيضاً في عدد المسلمين بالمقارنة مع عدد المسيحيين (عدد مسلمي ناحية الزاوية الذكور تناقص من ٢٠٥٥ عام ١٥١٩ إلى ١٨٠٠ عام ١٥٧١، بينما تزايد عدد المسيحيين من ١٩٦٠ عام ١٥١٩ إلى ٢٥١٠ عام ١٥٧١).

والحقيقة انه لا يمكننا الجزم في هذا المجال بقدر ما يمكننا طرح فرضيات وأسئلة:

ـ هل حصلت هجرات قسرية من قبل مسلمي قرى ناحية الكورة وانفه لأنهم ينتمون إلى طوائف غير سنيّة؟ وما يحملنا على هذا التساؤل ما حصل عشية الفتح العثماني في مختلف أنحاء بلاد الشام على اثر الصراع الدموي الكبير الذي دار بين السلطان سليم وشاه العجم في معركة جالدران ١٥١٤؟

ـ وهل حصلت أوبئة وأمراض في القرى التي يسكنها مسلمون؟

ـ وهل حصلت اضطرابات وفتن داخلية في تلك القرى؟

ـ وهل كان للجراد وحصول الغلاء والمجاعة دوراً مؤثراً في هذا المجال؟

ـ وما هو دور تزايد الضرائب، كما بيّنا، على هذا الأمر؟

ـ وهل ان السبب الرئيسي لتراجع عدد مسلمي ناحية الكورة وانفه يعود الى انخراط المسلمين في التشكيلات العسكرية والإدارية للدولة العثمانية من خلال مقتضيات نظام التيمار، علما ان الحروب بين الدولة العثمانية ودولة الفرس استنزفت الكثير من السكان العثمانيين(٤).

ـ أم يعود الأمر إلى البنية العائلية الداخلية الإسلامية حيث التزاوج كان يتم، إلى حد كبير، بين

الأقارب؟ ومن جهة أخرى تبرز جداول المتزوجين والعازبين ان نسبة العازبين كبيرة (في بترومين عام ١٥١٩ كانت النسبة ٧٨ , ٢٩٪).

على كل حال، هذا التراجع الديمغرافي عند المسلمين كان جزءاً من ظاهرة شاملة عرفتها أغلب نواحي شمال لبنان، وتاليا أغلب النواحي والولايات المجاورة.

ومع إيلاء الأهمية لكل هذه الفرضيات والأسئلة لا يمكن الجزم النهائي بصددها وذلك بانتظار المزيد من البحث والتحليل والمقارنة.

٥ ـ في نسبة العازبين والمتزوجين تبعاً لاحصاء ١٥١٩

انطلاقاً من ان الاحصاء كان يرتبط بشكل رئيسي بهدف جمع الضرائب، ولما كانت الضرائب ـ من الناحية البشرية ـ تفرض على الذكور الناضجين، فقد كان الاحصاء لا يطال النسوة والأولاد. واقتصر ما ذكر في الدفاتر على الرجال بصفتهم أرباب أسر (خانة)، وكذلك على الذكور الناضجين الذين في عمر يسمح بفرض الضريبة عليهم. ويسجل هؤلاء تحت اسم مجرد. وقد واجهنا بعض المصاعب عند مقارنتنا نسبة المتزوجين إلى نسبة العازبين. ذلك ان الدفتر يعطي في بعض الأحيان عدداً اجمالياً يزيد أو ينقص عن مجموع المجرد والخانة. وقد حاولنا قدر الإمكان أن نعالج هذا الوضع بما اعتبرناه مناسباً.

ما هي الملاحظات الأساسية التي يمكننا إيرادها انطلاقاً من الجدول رقم ٧؟

أ ـ ثمة بعض القرى التي لا وجود فيها للعازبين، تبعاً للاحصاء، ومنها: نخلة، ناووس، مجدل قاش، كفرحاتا، حامات، بيت يايل (بدنايل).

ب ـ هناك بعض القرى التي تتراوح نسبة المتزوجين فيها بين ٩٠٪ و١٠٠٪ من هذه القرى: بتعبورة، بكفتين، دار بشمزين، راس انحاش، عابا، عفصديق، كفر صارون، كفر قاهل، مجدل بعشتار.

ج ـ هناك قرية واحدة لا تصل نسبة المتزوجين فيها إلى نصف الذكور الناضجين وهي قلحات ٤٣٪.

د ـ القرى الكبرى كأميون وانفه يلاحظ فيهما نسبة زواج عالية (٨٩ , ٨٨٪) بينما بطرام فيها نسبة زواج متراجعة ٦٩٪.

هـ ـ إن الزواج في القرى المأهولة بالمسلمين فقط يتراوح بين نسبة تصل إلى مئة بالمئة (نخلة) ونسبة عالية كراس انحاش (٧ , ٩٢٪) ونسبة متوسطة كبترومين (٢٢ , ٦١٪).

و ـ في القرى المختلطة بين المسلمين والمسيحيين يمكن ملاحظة وجود نسب عالية في بعض القرى (بكفتين ٩٦٪، كفر قاهل ٩٠٪) ونسب أخرى تصل إلى ٦٩٪ (بتوراتيج) والقرى الأخرى فيما بين هاتين النسبتين.

ز ـ بالنسبة للقرى المسيحية يمكن تسجيل نسبة عالية من الزواج خاصة في القرى الصغيرة (كفرحاتا، حامات الخ . . .) والقرى الكبيرة (انفه واميون).

على صعيد العازبين في قرى ناحية الكورة وانفه نسجل جملة من الملاحظات:

- عدد العازبين، تبعاً للدفتر، هو ٣٤٥ ذكراً ناضجاً (مسلمين ومسيحيين).

- يلاحظ وجود عدد كبير في بعض القرى (بطرام ٥٨ عازباً، بصرما ٣٥، كفر عقا ١٧، كسبا ١٥، بترومين ١٣). وفي بطرام تصل نسبة العازبين إلى ٤٨,٣، وفي بصرما ٤٦,٦٪، وفي كفر عقا ٢٣,٩٪ وفي كسبا ٢٠٪، وفي بترومين ٢٦,٥٪ وهذه النسب تعتبر عالية مقارنة بمثيلاتها في تلك المرحلة.

- نسبة العازبين العامة من نسبة العدد العام للذكور الناضجين هو ١٧,٦٩٪.

على صعيد الدفتر ٥١٣ فقد لاحظنا انه، عكس الدفتر ٦٨، لم يوضح عدد المتزوجين وعدد العازبين تحت اسم (خانه ومجرد)، بل استبدل ذلك باسم «نفراً». وعدد الانفار يشمل المكلفين بالضرائب. انطلاقاً من ذلك لا نستطيع اعطاء جدول المتزوجين والعازبين والتطرق إلى نسبهم على نحو مقارن.

٦ ـ ملاحظات حول أسماء السكان في بعض القرى:

أولى الباحثون في الديمغرافيا التاريخية أهمية كبيرة للوائح الأسماء. فالمؤرخ لويس هنري Louis Henry طرح جملة احتمالات من أجل استعمال اللوائح الاسمية، منها: التصنيف حسب الجنس، التصنيف حسب العمر، تصنيف حسب الجنس والعمر والحالة الزوجية، تركيب العائلات والانفاق، التصنيف على أساس المهنة(٤٥).

أما وان الاحصاء الذي بين يدينا يقتصر على الذكور، واسم الذكر مع اسم والده ولا يعرض لأسماء الناضجين ـ من متزوجين وعازبين ـ ولا يتطرق للمهن وأوضاع الانفاق. فقد عكفنا على أخذ ثلاث عينات من ثلاث قرى واخضعناها للتحليل خاصة لجهة مدلول الأسماء. وحاولنا أن نصنف هذه الأسماء تبعاً لعدة معايير:

هل هي بسيطة أم مركبة؟ هل هي أسماء لإشراف أم عوام؟ هل تتضمن أسماء أماكن؟؟ أم أسماء مهن؟ هل هي أسماء لقديسين أم أسماء توراتية أو قرآنية أو انجيلية؟ أم هل هي أسماء صفات أو غير ذلك؟

أ ـ قرية بطرام: لقد ذكرنا ان قرية بطرام، عام ١٥١٩، كانت تعد ١٧٥ ذكراً. وقد انتقينا من أسماء سكانها عينة من ٣٦ اسما، وبعد التصنيف للاسمين الأول والثاني خرجنا بالاستنتاجات التالية:

- الأغلبية الساحقة من هذه الأسماء تعود لأسماء وردت في العهد القديم، وفي العهد الجديد وأسماء قديسين، مع بعض أسماء الصفة.

- لاحظنا وجود خمس قسس وخوري واحد (قس داود ولد فرح، قس إبراهيم، قس الياس ولد جرجس، قس ولد شاهلة(٤٦)، قس داود ولد سمعان.

- بالنسبة لأسماء العهد الجديد وهي الأكثر تردداً ترد على التوالي أسماء: سمعان (٦ مرات)،

يوحنا (٦)، يوسف (٥)، لوقا (٢)، عيسى (١)، بولوص (١) صليبة(١).

- ثم تأتي أسماء القديسين جرجس (٥) مرات، مخايل (٣)، جبرائيل (٢)، نقولا (١)، الياس (١).

ثم ترد أسماء من العهد القديم: إبراهيم (٥ مرات)، داود (٣)، موسى (٢).

- وما تبقّى قليل من أسماء الصفة: نعمه، فرح، مبارك، بركة، عبد شاهلة الخ . . .

وبشكل عام نسجل، بالنسبة للعيِّنة المأخوذة من ذكور بطرام الناضجين، انها أسماء بسيطة وليست مركبة، وتفتقد إلى أسماء الأماكن، ولم نلاحظ وجود أسماء مهن، وقلة من أسماء الصفة وطغيان لأسماء القديسين.

فهل يحق لنا، والحالة هذه، ان نستنتج ان الايديولوجية السائدة في بيئة بطرام هي بيئة دينية، وان الاكثار من أسماء القديسين هو دليل تقرّب من الدين ودليل خضوع لرموزه؟

ب ـ قرية عابا: عام ١٥٧١ كانت عابا، تبعاً للاحصاء، تحتوي على ١٩ ذكراً وبعد تصنيفنا للاسماء نلاحظ:

- غياب وجود أي خوري أو قس في القرية.

- ورود أسماء من العهد الجديد ١٠ مرات: يوسف (٦) يوحنا (٢)، سمعان (١)، بطرس (١).

- ورود أسماء لقديسين: جرجس (١)، سركيس (١)، الياس (١).

- ورود أسماء من العهد القديم: إبراهيم (٣)، داود (٢).

- ورود أسماء صفة: كمال (٢)، عطية (١)، عبيد (١)، غانم (١) الخ . . .

ج ـ راس انحاش: أورد احصاء ١٥٧١ ان سكان راس انحاش كانوا ٥ ذكور ناضجين وهم: علي موسى، علي بكر، براق أحمد، إبراهيم يونس، محمد عبد الباسط. أي ان هناك ثلاثة أسماء للخليفتين علي وأبو بكر، واسم الرسول محمد ثم أحمد، واسمين توراتيين إبراهيم وموسى، واسم ورد في القرآن: يونس، ثم اسم صفة براق واسم مركب عبد الباسط.

لقد حاولنا في هذه الدراسة الموجزة أن نحلل الجوانب الديمغرافية الأساسية لناحية الكورة وانفه، انطلاقاً من وثائق أساسية تمكنا من الاطلاع عليها. ولما كانت لغة الجداول والأرقام هي لغة جديدة في كتاباتنا التاريخية، ولما كان علم الديمغرافيا التاريخية نفسه هو علم جديد في أوساطنا الأكاديمية، فإننا، كما سبق وذكرنا في متن البحث، نطمح لفتح النقاش في هذا المجال أكثر مما نطمح لاعطاء الحقائق النهائية. حسبنا اننا قمنا بالبحث والتمحيص، ووصفنا ما درسنا، بعد التفكير الواسع في موضوعنا. وقد حاولنا أن نمارس التحليل من أجل وضع أسس للدراسة ومن أجل الوصول إلى نتائج نزعم انها هي الأقرب للصواب. وعلى كل حال ألم نقل أن الديمغرافيا التاريخية هي علم صعب، بحيث أنها تحتوي على كل تعقيدات علم الديمغرافيا المعاصر وتحتوي من جهة أخرى كل الثغرات والشكوك التي تفرضها الدقة في علم التاريخ.

جدول رقم ١

مجموع ما تدفعه ناحية الكورة وانفه سنوياً (بالآقجة) في القرن السادس عشر

	الجزية	الضرائب المتفرقة	الأوقاف	المجموع
احصاء ١٥١٩	-	٦٠٦١٧٤	٩٤١٩٠	٧٠٠٣٦٤ آقجة
احصاء ١٥٧١	٢٧٩٤٨٥	٨٦٨١٩٤	٣٥٥٤٠٠	١,٥٠٣,٠٧٩ آقجة

جدول ٢

بعض الأرقام للمقارنة حول قيمة الآقجة

أجرة الانكشاري سنوياً	١٩٥٥ آقجة عام ١٥٢٧			
أجرة السباهي سنوياً	٦٠٨٤ آقجة عام ١٥٢٧			
عام ١٥٢٠	متر القماش ٦ - ٥ آقجة	الخروف ٣٠ - ٣٥آقجة وقة الجبن ٨ آقجة	كيلة القمح (٢٥ كلغ) ٧ - ٦ آقجة	وقة السكر (١٢٨٠ غرام) ٢٠ آقجة
عام ١٥٦٠	٧ - ٩ آقجة	الخروف ٧٠ - ٨٠ آقجة وقة الجبن ٤٢ أقجة	٧ - ٩ آقجة	٢٩ آقجة
موازنة الدولة العثمانية ١٥٢٧ - ١٥٢٨	٢٢١,٥٨٢,٤٠٢ آقجة			
موازنة الدولة العثمانية ١٥٦٧ - ١٥٦٨	٢٢٩,٠٣٤,٩١٦ آقجة			

جدول ٣

بعض المعطيات الاقتصادية في ناحية الكورة عام ١٥٧١

عدد الطواحين	عدد معاصر الزيت	عدد معاصر العنب	مجموع دواليب الحرير
٩٧	٦٨	٧٥	٩٧

جدول رقم ٤

مجموع عدد الذكور الناضجين في ناحية الكورة وانفة في القرن السادس عشر

اسم القرية	١٥١٩	١٥٧١	الزيادة	الزيادة السنوية بالألف
اجد عبرين	١٣	٢٧	١٤	١٤,١٥
الكفرة	٣٨	٣٨	-	-
أميون	١٨٣	٣١٢	١٢٩	١٠,٣١
بترومين	٤٩	٤٤	٥ -	٢,٠٦—
بجورا	٥	-	٥ -	-
بكمرا	٥	٨	٣	٩,٠٧
بزيزا	٨٤	٨٢	٢ -	٠,٤٦—
بتعبورة	١٣	٢٨	١٥	١٤,٨٦
بتوراتيج	٤٨	٦٨	٢٠	٦,٧٢
بدبا	٢١	٢٨	٧	٥,٥٤
برسا	٥٣	٥٢	١ -	٠,٣٦—
برانفة	-	٣	٣	-
برغون	١٢	٢٦	١٤	١٤,٩٨
بشمزين	١٤٠	١٢٩	١١ -	١,٥٧—
بصرما	١٠٢	١٥٠	٤٨	٧,٤٤

تابع جدول رقم (٤)

اسم القرية	١٥١٩	١٥٧١	الزيادة	الزيادة السنوية بالألف
بطرام	١٧٥	١٥٠	- ٢٥	—٢,٩٦
بكفتين	٨٢	١٠٨	٢٦	٥,٣١
بيت بابل (بدنابل)	٤	٩	٥	١٥,٧١
حامات	٣	٦	٣	١٣,٤١
دار بشمزين	٢١	١٨	- ٣	—٢,٩٦
دده	٦٥	٧٣	٨	٢,٢٣
راس مسقا	١٤	٢٦	١٢	١١,٩٧
راس نحاش	١٢	٥	- ٧	—١٦,٦٩
طر بعشتار	٢١	٣١	١٠	٧,٥١
عابا	١٤	١٩	٥	٥,٨٩
عنصديق	٦٠	٧٠	١٠	٢,٩٦
فيع	٣٣	٥٢	١٩	٨,٧٨
قلحات	٧	٢٧	٢٠	٢٦,٣٠
كسبا	٧٥	١٣٢	٥٧	١٠,٩٣
كفتون	٥	٥	-	-
كفر حاتا	١٢	٣٠	١٨	١٧,٧٧
كفر حزير	٧٧	١٥٤	٧٧	١٣,٤١
كفر صارون	٤٤	٦٢	١٨	٦,٦١
كفر عقا	٧١	٩٨	٢٧	٦,٢١
كفر قاهل	٩٣	١٠٦	١٣	٢,٥١
مجدل قاش	٧	١٦	٩	١٦,٠٢
ناووس	٧	٥	- ٢	—٦,٤٤
نخلة	١٦	٢٢	٦	٦,١٤
نفس انفه	١٣٣	٣٣٥	٢٠٢	١٧,٩٢
مجدل طرب عشتار	٣٢	٦١	٢٩	١٢,٤٨
قلمون	٣	١	- ٢	٥,٥٤
بكمرا	٥	٦	١	٣,٥١
المجموع العام	١٨٥٤	٢٦٢١	٧٦٧	٦,٦٨

جدول رقم ٥

مجموع النصارى في ناحية الكورة وانفه

ونسبة الزيادة السنوية في القرن السادس عشر

اسم القرية	عام١٥١٩	عام ١٥٧١	الزيادة	الزيادة السنوية بالألف
اجد عبرين	٩	٢٤	١٥	١٩,٠٤
الكفرة	٣٨	٣٨	-	-
اميون	١٨٣	٣١٢	١٢٩	١٠,٣١
بتعبورة	١٣	٢٨	١٥	١٤,٨٦
بتوراتيج	٢٨	٤٨	٢٠	١٠,٤١
بدبا	٢١	٢٨	٧	٥,٥٤
برسا	١٧	٣٠	١٣	١٠,٩٨
برغون	١٢	٢٦	١٤	١٤,٩٨
بزيزا	٨٤	٨٢	- ٢	-
بشمزين	٧٧	٧٠	- ٧	—١,٨٣
بصرما	١٠٢	١٥٠	٤٨	٧,٤٤
بطرام	١٧٥	١٥٠	- ٢٥	—٢,٩٦
بكفتين	٤٧	٧٧	٣٠	٩,٥٣
بيت بابل (بدنابل)	٤	٩	٥	١٥,٧١
حامات	٣	٦	٣	١٣,٤١
دار بشمزين	٢١	١٨	- ٣	—٢,٩٦
دده	٤٠	٥٣	١٣	٥,٤٢
راس مسقا	-	-	-	-
طرب عشتار	٢١	١٨	- ٣	—٢,٩٦
عابا	١٤	١٩	٥	٥,٨٩
عنصديق	٦٠	٧٠	١٠	٢,٩٦
فيع	٣٣	٥٢	١٩	٨,٧٨

اسم القرية	عام ١٥١٩	عام ١٥٧١	الزيادة	الزيادة السنوية بالألف
قلحات	٧	٢٧	٢٠	٢٦,٣٠
كسبا	٧٥	١٣٢	٧٥	١٠,٩٣
كفتون	٥	٥	-	-
كفرحاتا	١٢	٣٠	١٨	١٧,٧٧
كفرحزير	٧٢	١٥٠	٧٨	١٤,٢١
كفرصارون	٤٤	٦٢	١٨	٦,٦١
كفرعقا	٦٧	٩٥	٢٨	٦,٧٣
كفرقاهل	٣٠	٦٥	٣٥	١٤,٩٨
مجدل قاش	٧	١٦	٩	١٦,٠٢
ناووس	٧	٣	-٤	ـ١٦,١٦
نخلة	-	٩	٩	-
نفس انفه	١٣٣	٣١٠	١٧٧	١٦,٤٠
مجدل طرعشتار	٣٢	٦٠	٢٨	١٢,١٦
قلمون	٣	١	-٢	ـ٢٠,٩٠
بكمرا	٥	٦	١	٣,٥١
بجورا	٥	-	-٥	-
المجموع العام	١٥٠٦	٢٢٧٩	٧٧٣	٩٩,٧

جدول رقم ٦

مجموع المسلمين في ناحية الكورة وانفه ونسبة الزيادة في القرن السادس عشر

اسم القرية	احصاء عام ١٥١٩	احصاء عام ١٥٧١	الزيادة العامة	النسبة السنوية بالألف
اجد عبرين	٤	٣	- ١	ـ٥,٥١
بتوراتيج	٢٠	٢٠	-	-
بترومين	٤٩	٤٤	- ٥	.٢,٠٦
برسا	٣٦	٢٢	- ١٤	ـ٩,٤٢
برانفه	-	٣	٣	-
بشمزين	٦٣	٥٩	- ٤	ـ١,٢٦
بكفتين	٣٥	٣١	- ٤	ـ٢,٣٣
بكمرا	-	٢	٢	-
دده	٢٥	٢٠	- ٥	.٤,٢٨
راسمسقا	١٤	٢٦	١٢	١١,٩٧
راس نحاش	١٢	٥	- ٧	ـ١٦,٦٩
طرب عشتار	-	١٣	١٣	-
قلمون	-	٣	٣	-
كفر حزير	٥	٤	- ١	ـ٤,٢٨
كفر عقا	٤	٣	- ١	ـ٥,٥١
كفر قاهل	٦٣	٤١	- ٢٢	ـ٨,٢٢
ناووس	-	٢	٢	-
مجدل طرعشتار	-	١	١	-
نخلة	١٦	١٣	- ٣	ـ٣,٩٨
نفس انفه	-	٢٥	٢٥	-
المجموع	٣٤٦	٣٤٠	ـ ٦	ـ٠,٣٣

جدول رقم ٧

المتزوجون ونسبتهم من العدد العام لذكور ناحية الكورة وانفة ١٥١٩

اسم القرية	عدد المتزوجين	نسبتهم	اسم القرية	عدد المتزوجين	نسبتهم
اجد عبرين	١٠	٧٧٪	راس انحاش	١٢	٩٢,٧٪
الكفرا	٢٥	٦٦٪	طرعشتار	١٤	٦٧٪
اميون	١٦٣	٨٩٪	حاپا	١٣	٩٣٪
بترومين	٤٩	٦١,٢٢٪	عفصديق	٥٥	٩٢٪
بجورا	٤	٨٠٪	فيع	٢٦	٧٨٪
برغون	٩	٧٥٪	قلحات	٣	٤٣٪
بزيزا	٧١	٨٥٪	قلمون	٢	٦٦,٦٦٪
بشمزين	١٠٧	٧٦٪	كفتون	٤	٨٠٪
بتعبورة	١٢	٩٢٪	كفر حاتا	١٢	١٠٠٪
بتوراتيج	٣٣	٦٩٪	كفر حزير	٦٥	٨٤٪
بدبها	١٤	٦٧٪	كفر صارون	٤٣	٩٨٪
برسا	٤٣	٨١٪	كفر عقا	٥٥	٧٧٪
بصرما	٧٠	٦٩٪	كفر قاهل	٨٤	٩٠٪
بطرام	١٢٠	٦٩٪	مجدل بعشتار	٢٩	٩١٪
بكفتين	٧٩	٩٦٪	مجدل قاش	٧	١٠٠٪
بيت بابل (بدنابل)	٤	١٠٠٪	ناووس	٧	١٠٠٪
حامات	٣	١٠٠٪	نخلة	١٦	١٠٠٪
دار بشمزين	٢٠	٩٥٪	نفس انفه	١١٧	٨٨٪
دده	٥٣	٧٣٪	بكمرا	٥	١٠٠٪
راسمسقا	١٦	٨١,٢٥٪	المجموع	١٥٢٧	٨٢,٣٤٪

(١) من أبرز الدراسات التي تطرقت الى هذا الموضوع:
- دراسة الدكتور خليل ساحلي أوغلو: نسبة عدد سكان المدن إلى مجموع عدد السكان في بعض الولايات العربية في الحكم العثماني، المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية، العدد ١ و٢، جانفى/يناير ١٩٩٠، ص ١٣١ - ١٦٣.

Muhammad Adnan Bakhit: The ottoman province of Damsacus in the sixteenth century. librairie du Liban. Beirut, 1982.

- محمد عدنان البخيث: دفتر مفصّل خاص أمير لواء الشام (طابو دفتري ٢٧٥) ٩٥٨هـ، أو ١٥٥١م، عمان، ١٩٨٩.

الياس القطار: التحركات السكانية في لبنان في القرن السادس عشر، حنون، العدد ٧، ١٩٨٢ - ١٩٨٤، ص ٤٣ - ٦٣.

Antoine Abdel Nour: Introduction à l'histoire urbaine de la Syrie ottomane XVI-XVIII siècle. Pub. de l'université Libanaise, Beyrouth, 1982.

- دراسات عمر لطفي برقان وهاتكوس ولويس وكوهين وهتروت وغيرهم...

(٢) الطابو دفتري رقم ٦٨ الذي يتضمن إحصاء عام ١٥١٩، والطابو دفتري ٥١٣ الذي يتضمن إحصاء عام ١٥٧١.

(٣) Omer Lutfi Barkan: J.E.S.H.O (Journal of the economic and social history of the Orient, 1957, P11.)

أما لطفي باش فيقول ان السجلات كانت تنظم كل ثلاثين سنة لحصر المرضى والموتى.

(٤) خليل ساحلي اوغلو: المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية، العدد ١ - ٢، جانفى/يناير ١٩٩٠، ص ١٣٢.

(٥) المرجع السابق، ص ١٣٣.

(٦) Halil Inalcik: ottoman method of Conquest. Studia Islamica, 11, 1954, PP. 103-129.

(٧) محمد ايشرلي ومحمد التميمي: أوقاف وأملاك المسلمين في فلسطين، استانبول، ١٩٨٢، ص ط.

(٨) خليل ساحلي أوغلو: المرجع السابق، ص ١٣٣.

إن دفاتر المفصّل، في الجزء الأول منها، تضم معلومات حول التشكيلات الإدارية في الولاية موضوع التحرير، وما يتعلق بالخاص والزعامت والتيمار والمقاطعات والرعايا والسكان المكلفين بدفع الضرائب وأرباب الحرف والخدمات المساعدة والاعفاءات الجمركية والقلاع والعشائر وغير ذلك فضلاً عن القانون نامه، الخاص بهذه الولاية. أما دفاتر الاجمال فهي توضح تقسيمات وحدود الولايات، ولمن تعود الأراضي بما فيها من ميري وخاص وزعامت وتيمار ومجموع محاصيلها. وهذه الدفاتر هي الأشكال المختصرة لدفاتر المفصّل، وفيها يتم بيان الرعايا المكلفين في القرى والقصبات وسكان المدينة دون ذكر أسمائهم فرداً فرداً، ومقدار الضرائب المقررة على كل ايالة وسنحق ولمن تدفع. نجاتي اقطاش وعصمت بيارق: الأرشيف العثماني، ترجمة صالح سعداوي صالح، اسطنبول وعمان، ١٩٨٦، ص ٣٣.

(٩) محمد ايشرلي ومحمد التميمي: المرجع السابق، ص ط.

(١٠) يقول المؤرخ الفرنسي الكبير Pierre Chaunu: Toute science humaine, sans une puissante base démographique, n'est qu'un fragile château de cartes, toute l'histoire, qui ne recourt pas à la démographie, se prive du meilleur instrument d'analyse.

(١١) Marcilio et Charbonneau: Démographie historique pp: 34-45.

(١٢) Annales de démographie historique, 1972, pp. 14-15.

(١٣) يقول عمر لطفي برقان: المرجع السابق، ص ١٧، الاحصاء العثماني يتضمن ثبتا دقيقاً بكل اعداد السكان في الامبراطورية، مع كل التفاصيل الغنية والدقيقة... وثمة احصاء زراعي مفصّل يتضمن مساحة الأرض، الأشجار المثمرة الموجودة عليها، الكروم، الطواحين، الغابات، قفران النحل، الأغنام، الماعز، مع كل الموجودات الزراعية وكميتها وقيمتها بالآقجة.

(١٤) المرجع السابق، ص ٣١.

(١٥) المرجع نفسه، ص ٢١ وص ٢٨ وص ٣٣ بينما يعتمد عبد النور استناداً الى خليل ساحلي اوغلو الضرب بالرقم ٦،

(عبد النور، المرجع السابق، ص ٣١).

(١٦) برقان: المرجع السابق، ص ٢٨. ويمكن مراجعة كتاب انطوان عبد النور: المرجع السابق، ص ٥٦ وما بعدها.

(١٧) يقول L. Henry: «نحدد الديمغرافيا على انها مجموع المنهجيات التي تسمح بدراسة بيوغرافيات مجموعة من الأفراد». Annales de démographie historique, 1972, paris, p. 154.

(١٨) راجع مقال خليل ساحلي اوغلو في: Studies on Turkish-Arab relations, Istanbul, 1986, p. 248.

(١٩) يذكر خليل ساحلي اوغلو وجود ثلاث نواح أخرى (إذ يفصل بين الكورة وانفه) ويزيد انطرطوس وبرزيه، المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية، المرجع السابق، ص ١٥١.

(٢٠) الطابو دفتري ٥١٣، ص ٣١.

(٢١) الدفتر ٦٨، ص ٢٤.

(٢٢) لم يذكر الدفتر صفة مزرعة، المرجع السابق، ص ٣٣.

(٢٣) برغم ان الدفتر أطلق لقب مزرعة على القلمون، إلا انه لحظ وجود ٣ ذكور (متزوجين وعازب واحد) ويبدو من خلال أسمائهم انهم نصارى: إبراهيم يعقوب، سرور إبراهيم، بطروس إبراهيم.

(٢٤) ذكرت هكذا: قرية انفه تابع لواء ترابلس (كذا) خاص مير لواء طرابلس، الدفتر، المرجع السابق، ص ٤٧ - ٤٨.

(٢٥) ربما تكون سوما.

(٢٦) هذه المزارع المذكورة بعد انفه لحظ انها مزارع كه انفه، المرجع السابق، ص ٤٩.

(٢٧) لا ذكر في الدفتر لانفه وإنما رجحنا ذلك كونها ذكرت مباشرة بعد مزارع انفه، وعلى كل حال فإن الدقة العلمية تفرض علينا التحفظ.

(٢٨) لا ذكر للناحية.

(٢٩) لحظنا مزرعة قلمون قرية باعتبار انها تحتوي على سكان.

(٣٠) ربما تقرأ أيضاً بعميتور؟

(٣١) ذكرت قرية كفريا ولكن لا وجود لأسماء أهل القرية على الدفتر والسؤال الذي يطرح نفسه، إذا لم تكن مأهولة بالسكان لماذا لم يصنفها الدفتر في عداد المزارع؟

(٣٢) كتبت قرية حلبايا، لكن لم يلحظ فيها سكان، المرجع السابق، ص ٢٦٣.

(٣٣) للمرة الثانية يرد هذا الاسم فقد ورد في ص ٧٣ ويرد الآن في ص ٢٦٥.

(٣٤) فصل الدكتور خليل ساحلي اوغلو بين ناحية الكورة حيث لحظ فيها وجود ٢٦ قرية و١٥ مزرعة وديرين، وناحية انفه التي ذكر ان فيها ١٣ قرية و١٥ مزرعة ودير واحد، المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية، المرجع السابق، ص ١٥١.

(٣٥) على سبيل المقارنة كان مردود ناحية الزاوية مع اهدن عام ١٥٧١ (أي الضرائب والجزية ومردود الأوقاف) ٨٧٥١٦٥ آقجة أي ان ناحية الكورة وانفه تقريباً كانت تدفع ضعفي ناحية الزاوية.

(٣٦) يمكن، على سبيل المثال لا الحصر، مراجعة الكتاب الوثائقي الهام للأب سامي خوري:

Sami Kuri: Monumenta proximi-Orientis, Tl, Palestine-Liban-Syrie- Mésopotamie (1523-1583). Roma. 1989.

(٣٧) برقان: المرجع السابق، ص ٢٧ - ٢٨، وكذلك انطوان عبد النور: المرجع السابق، ص ٥٩.

(٣٨) Université Lyon II, Démogranaohie Urbaine XV-XXe, S.D. Centre Lyonais, No 8, p.6.

(٣٩) برقان: المرجع السابق، ص ٢٨.

(٤٠) المشرق السنة ٤٤، البطريرك اسطفانوس الدويهي: تاريخ الأزمنة، المطبعة الكاثوليكية، ١٩٥١، ص ٢٤٠ - ٢٤٦ ويمكن مراجعة الأطروحة المميزة لفادي توا: المناخ والأسعار والأمراض في جبل لبنان، اشراف د. عصام خليفة، ١٩٩٢.

(٤١) Sami Kuri: Op. Cit, p. 146.

(٤٢) البطريرك اسطفانوس الدويهي: المرجع السابق، ص ٢٧.

(٤٣) بالنسبة لقرية راسمسقا ذكر الدفتر في الاحصاء العام ان عدد سكانها هو ٢٦ ذكراً، بينما عاد فذكر وجود ٢٨ نفراً فيها، الطابو دفتري ٥١٣، ص ٢٦٤ - ٢٦٥. ويمكن بالتالي ان نعتمد الرقم ٢٦ أيضاً لعدد الذكور الناضجين في

هذه القرية مع التحفظ.

(٤٤) بعد ان يسجل خليل ساحلي اوغلو، في دراسته المذكورة أعلاه، التناقص في عدد المسلمين في مختلف ولايات طرابلس والشام وحلب، يؤكد قائلاً: «لا شك ان انخفاض عدد سكان المدن يرجع إلى الحروب مع إيران في آخر العصر...» ساحلي: المرجع السابق، ص ١٦١. لكن يبدو ان هناك مراجع أخرى تؤكد على دور الدولة العثمانية في اضطهاد العناصر الإسلامية غير السنية. وفي هذا السياق يورد الباحثون فتوى أصدرها الشيخ نوح الدمشقي، حوالي عام ١٥١٦، جاء فيها:

«اعلم اسعدك الله أن هؤلاء الكفرة، والبغي الفجرة، جمعوا بين أصناف الكفر والبغي والفساد، وأنواع الفسق والزندقة والالحاد، ومن توقف في كفرهم والحادهم ووجوب قتالهم، وجواز قتلهم فهو كافر مثلهم. وسبب وجوب قتالهم وجواز قتلهم: البغي والكفر معا، أما البغي فانهم خرجوا عن طاعة الامام خلد الله تعالى ملكه الى يوم القيامة.. وأما الكفر فمن وجوه، منها انهم يستخفون بالدين، ويستهزئون بالشرع المبين.. ويهينون العلم والأدباء.. ويستحلون الحرمات.. وينكرون خلافة الشيخين.. فيجب قتل هولاء الأشرار تابوا أم لم يتوبوا...»

هاشم عثمان: تاريخ الشيعة في ساحل بلاد الشام الشمالي، منشورات مؤسسة الاعلمي للمطبوعات، بيروت، لبنان، ١٩٩٤. نقلا عن كتاب حلب والتشيع للشيخ إبراهيم نصر الله.

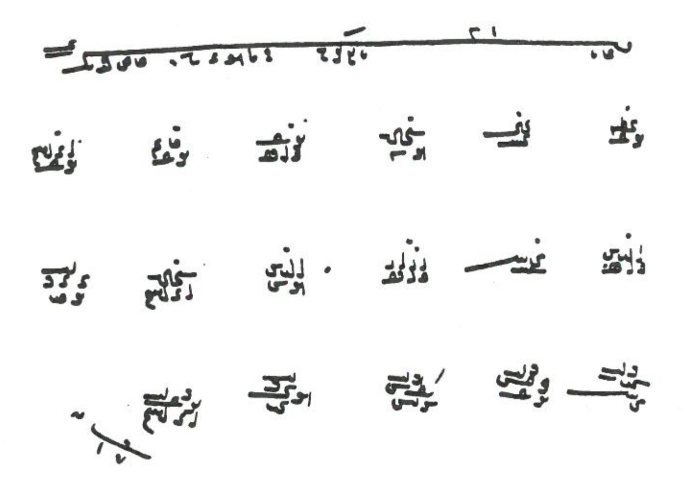
(٤٥) Annales de démographie historique, 1972, Paris. P. 149.

(٤٦) هل ان هذا الاسم تطور لاحقاً فأصبح شهلا؟

عيّنة من اسماء الذكور الناضجين في بطرام تبعاً لاحصاء ١٥١٩.

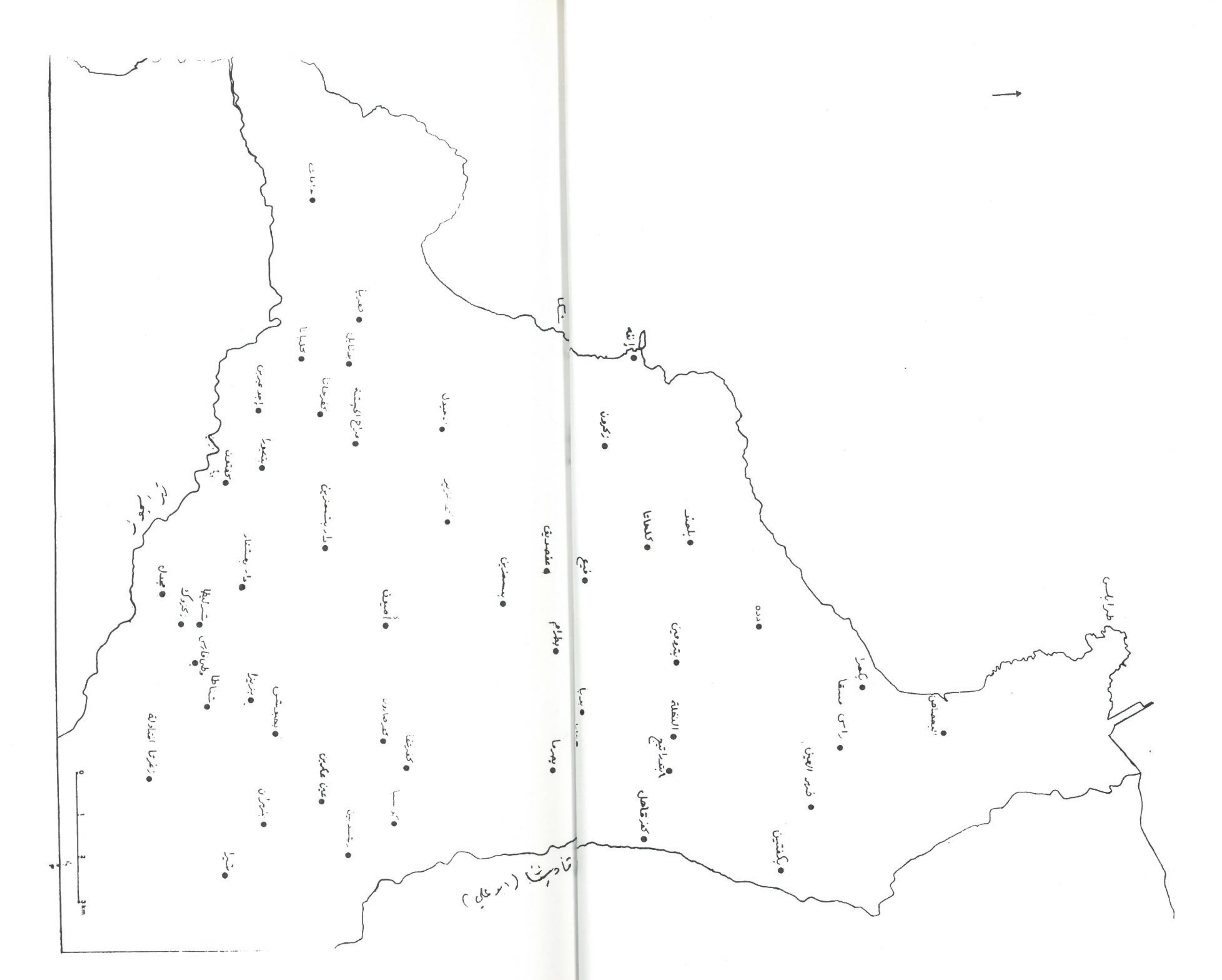
الذكور الناضجين في راس انحاش تبعاً لاحصاء ١٥٧١

الذكور الناضجين في بكمرا تبعاً لاحصاء ١٥٧١.



الذكور الناضجين في عابا تبعاً لاحصاء ١٥٧١

عيّنة من اسماء الذكور الناضجين في كفرصارون تبعاً لاحصاء ١٥٧١.



ناحية الكورة وأنفه في القرن السادس عشر

الديمغرافيا التاريخية لناحية بشرّي
في القرن السادس عشر(*)

إذا كانت أحداث التاريخ تحصل في مسار زمني محدّد، فإن هذه الأحداث تتحرك أيضاً على أرض الجغرافيا. وإذا كان عرض الأحداث، المتعلقة بالإنسان على نحو أساسي، هو من أبرز اهتمامات البحث التاريخي، فإن كشف علاقة هذا الإنسان بالإطار الجغرافي لا تقلّ أهمية من أجل بلورة المعرفة الحقيقة للمعطيات التاريخية. فهل كان راتزل مغالياً عندما أكد أن «الإطار الجغرافي هو الذي يصنع الإنسان»(١)، بينما أكد باحثون آخرون أن الجغرافيا لا تفسّر كل تاريخ الناس. ذلك أن الإطار الجغرافي الذي يعيش فيه الإنسان ويتحرّك ضمنه لا يفرض عليه الخضوع بقدر ما يحمل الإنسان على أن يؤثر في هذا الإطار الجغرافي. وفي هذا السياق يمكن أن نفهم قول فرنان بروديل: «إن الإطار الجغرافي لا يضايق الناس باستمرار لأن قسماً كبيراً من نشاطهم اقتصر على التخلص من عداء الطبيعة»(٢). إن الطبيعة تؤمن إمكانيات العيش والدفاع والتنقل والعلاقات. والإنسان يعرف ذلك إما غريزياً أو بوعي كامل، وفي ضوء ذلك كان يحدد خياراته. فالتباينات بين نوعيات التربة والظروف المحلية للمناخ، والمياه، والتي تنعكس من خلال المزروعات، تشكّل قاعدة التفسير لاستيطان الإنسان في هذا الموقع الجغرافي أو ذاك.

إن السكن في الجبال عامة وفي حوض البحر الأبيض المتوسط بشكل خاص يرتبط بجملة عوامل، ليس العامل السياسي أقلّها أهمية. فالجبال هي ملاجئ ضد الجيوش. والجبل يجب أن يتكّل على نفسه في العيش وفي انتاج أغلب المزروعات. والجبال في حوض المتوسط كانت إلى حدّ كبير أرض الناس الهاربين من السيطرة المباشرة للسلطات المركزية. من هنا يلاحظ المؤرخ الفرنسي الكبير فرنان بروديل أن سكان المناطق الجبلية العالية في حوض المتوسط، خلال القرن السادس عشر، كانت تنتمي الى أديان مغايرة لأديان سكان المناطق السهلية(٣). والجبال عادة هي مناطق على هامش الحضارة المدينية. ففي الجبال لا وجود لإدارة منضبطة، من هنا يذهب البعض الى اتهام الجبليين بأنهم يأخذون من القوانين ما يناسبهم، وإنهم قلّما يعيشون في كنف الاقتصاد المرتكز على العملة. والحياة في الجبال ممكنة وليست سهلة، من هنا وجوب استمرار تنقيب الأرض بالأيادي، والحفاظ على الأرض التي تزحل باستمرار، والإسراع في بناء الجلول بالحجارة الصغيرة. وهذا العمل صعب ولا نهاية له. وفي حال التوقف عن العمل المستمر تعود الطبيعة الى وحشيتها. وكل شيء يجب إعادة بنائه.

التربة في جبال حوض المتوسط غنية بالمارن ويمكن أن تزرع بالقمح والتوت والكرمة والزيتون، وهناك المراعي الواسعة لقطعان الحيوانات الأليفة وبخاصة الماعز. الحليب والأجبان تنتج إذن بكثرة في هذه الجبال، ولحوم هذه الحيوانات هي غذاء أساسي للسكان. وحتى أن بيوت الجبليين هي منازل مزارعين ورعاة مبنية لتربية الحيوانات أكثر منها مجهزة لسكن الناس(٤).

(*) بحث قدم الى المؤتمر الذي اعد حول تاريخ جبّة بشرّي ابان العهد العثماني، بشري، ت٢، ١٩٩٤.

إضافة الى الأرض هناك عامل الشمس وعامل المناخ والمياه. وهذه كلها لها تأثيرها الواضح على جسد الإنسان وعلى طباعه وعلى كل مساره التاريخي. هكذا يبدو أن ثمة تأثير ثابت ومستمر ومتشعّب، ومتناقض في بعض الأحيان، لكل العوامل المتفاعلة: الأرض والمناخ والنبات.

انطلاقاً من كل ذلك يجب أن نلج الى دراسة الديموغرافية التاريخية لجبّة بشرّي في القرن السادس عشر. وإن ذلك يحملنا على استحضار نظرية التحدي والاستجابة لتوينبي. فإذا كانت مصر واليونان، في الزمن الماضي، قد استغلّتا تربة الطمي في وادي النيل، وصخور الأتيك، فإن أهل جبّة بشري استجابوا لتحديات الطبيعة ببناء الجلول وممارسة الزراعة رغم كل ظروف المناخ. وإن ضآلة مساحة المنطقة (٢٢٠ كلم^2 تقريباً)(٥) حملت السكان على التمدد باتجاهات مختلفة، الى ما وراء جبل المكمل نحو البقاع، وكذلك نحو المناطق الجنوبية والساحلية خاصة. وهذا الجبل - المكمل - ألا يمكننا أن نطلق عليه أيضاً ما لاحظه فولناي، الرحالة الفرنسي، عن جبل صنين: «أنه يحمل الشتاء على رأسه، والربيع على منكبيه، والخريف في صدره، بينما الصيف ينام على قدميه»(٦).

في إطار جغرافية وادي قاديشا، وهي كما يعرّفها الجغرافيون، منطقة صعبة المسالك جيّدة المناخ نسبياً غزيرة المياه، مارس السكان عقائدهم الإيمانية وطقوسهم وعاداتهم الاجتماعية بعيدين نسبياً عن القبضة المباشرة للسلطة المركزية. وليس من قبيل المصادفة أن تكون قنوبين مقراً للبطريركية المارونية، وليس من قبيل المصادفة أيضاً أن تشهد هذه المنطقة قيام الأديار والمناسك الكثيرة والمؤسسات الثقافية المارونية الأولى، كمدرسة حوقا ومطبعة دير قزحيا وغيرها الكثير. لقد شكلت الجغرافيا في هذه المنطقة الملجأ والملاذ وعامل التحدي في آن. في هذه البيئة عاش الإنسان قوياً وصلباً وإرادوياً. يعمل كثيراً مكتفياً بالمآكل البسيطة، مقتصداً ومتحسباً لما سوف يأتي. يتجاهل كل ما هو مرفّه، ويبتعد عن الترف. مغروز في الماضي بكل نسيجه، محافظ على قيم الأجداد عبر التمسّك بالتقاليد القديمة واللباس القديم واللغة القديمة والديانة القديمة. وفي كل حال يعيش إجمالاً مع سائر أفراد العائلة في إطار عشائري وبطركي متماسك. هذا الجبلي كان حذراً من أهل السهول وكان يستلهم من أعالي قمم الجبال مشاعر الثقة بالنفس الى حد التفوّق الأمر الذي كان يخنق فيه، في كثير من الأحيان، قوة الإبداع والنظرة ذات الآفاق الواسعة(٧).

ما هو الإطار الجغرافي لناحية بشرّي في القرن السادس عشر؟

كانت الدولة العثمانية، كما هو معروف، تشكل من وحدات إدارية أكبرها الولاية أو الإيالة، وهذه تنقسم بدورها الى سناجق أو ألوية، وهذه الأخيرة تتألف من أقضية ونواحي. والناحية إجمالاً هي عبارة عن مدينة أو قصبة وما حولها من قرى ومزارع(٨).

ومنذ السنوات الأولى لاحتلال المشرق العربي من قبل العثمانيين كانت ولاية طرابلس تنقسم الى مجموعة من النواحي تبدأ من فتوح بني رحال في الجنوب الى اللاذقية وطرطوس في الشمال. ويبدو أن من خصائص التقسيمات الإدارية العثمانية سرعة التغير بين فترة وأخرى. ففي حين يشير الطابو دفتري رقم ٦٨(٩) الى وجود ٢٦ ناحية في ولاية طرابلس، يذكر الطابو دفتري رقم ٥١٣(١٠) وجود ١٤ ناحية(١١). ومن المعروف أن كل ناحية تتألف من قرى ومزارع. والقرية

هي التي يسكنها عدد معيّن من النفوس، أما المزرعة فهي إجمالاً غير مسكونة من البشر. والدفتر يعطي التسمية قرية أو مزرعة، ويذكر أيضاً الناحية التي تنتمي اليها هذه أو تلك.

في الإحصاء الأول كانت ناحية بشرّي تتألف من ٣٩ قرية و١١ مزرعة، مع لحظ وجود ذكر لديرين (دير قنوبين ودير حماطورا).

القرى هي التالية تبعاً للتسلسل الموجود في الدفتر[١٢]: غرزتا، موسى، سرعل، بلوزا، ادنيت، كرم سدى، كفرفو، حورونا، بصلوقيت، افقه، اهدين، بان، سبعل، عين تورين، حدشيت، كفرصغاب، ايطو، بنشعي، اجبع الجبل، تولا، اقنات، حدث، برحليون، عبدين، بيلا، متريت، بنهران، راش دبين، راسكيفا، نفس بشرّي، حصرون، بقرقاشا، طرزا، نيحا، كفرصارون، ابريسات، بزعون، بقاع كفرا (ذكرت كقرية ولم يورد الدفتر اسماء سكانها)، مزرعة التفاح.

المزارع هي التالية: مزرعة حرف اخرى، مزرعة حدث، مزرعة كوكبه، مزرعة بدعنا، مزرعة ينصح، مزرعة عربية سرعل، مزرعة بلومبيس (بيت بلعيس)، مزرعة مرحين، مزرعة طور، مزرعة عورين، مزرعة كفيره.

هذه القرى والمزارع تنتشر حول وادي قاديشا على الجهتين الشمالية والجنوبية. وفي هذا الوادي تصبّ جملة ينابيع تشكل لاحقاً ما يسمى نهر أبو علي.

وإذا ما رسمنا خطاً حول حدود هذه القرى والمزارع لوجدنا أنفسنا حول مثلث دائري قاعدته صوب البحر وقمته في الشمال فوق غابة الأرز وضلعاه الآخران: واحد يتجه من الشمال الغربي نحو الجنوب الشرقي، والآخر يتجه من الجنوب الغربي نحو الشمال الشرقي. هذه القرى تعتبر من المناطق الأكثر ارتفاعاً في شرق المتوسط وتتعرض في نسبة غير قليلة منها للثلوج سنوياً.

بالنسبة للإحصاء الثاني[١٣] يمكننا إيراد أسماء القرى التالية حسب التسلسل الموجود في الدفتر:

نفس بشراي، حدث، كرم سدى، بنهران، راس دبون (رشدبين)، برحليون، بقرقاشا، تولا، راس كيفا، حدشيت، حورونا، اقنات، متريت، نيحا، بقاع كفرا، ايطو، ادنيت، اجبع الجبه، بصلوقيت، طورزا، عين تورين، اهدين، بان، موسى، كفرفو، بنشعاي، عبدين، سبعل، غرزتا، بزعون، بلوزه، بيلا، حصرون، كفرصارون، سرعل، كفرصغاب.

أما المزارع فهي التالية:

مزرعة دير كوشة او دير مقدس بلوزا، مزرعة راس تعمود (تعموت)، مزرعة تفاح، مزرعة مزيارة، مزرعة سمخ (او سنخ)، مزرعة دير حمطور، مزرعة برعم (برعل)، مزرعة حصون النهر، مزرعة ابريسات، مزرعة احلوس، مزرعة كفرعربة، مزرعة عربة قزحيا، مزرعة بلوقس (بيت بلعيس؟)، مزرعة دير نهرا، مزرعة المصاّر (المسار)، مزرعة بردع، مزرعة بحيرة.

أي أن هناك ٣٥ قرية و١٧ مزرعة.

ما هي الملاحظات التي يمكننا إيرادها في هذا المجال؟

١ - برغم ورود افقة في الإحصاء الأول لا ذكر لها في الإحصاء الثاني. ولا يمكننا الجزم في سبب هذا الغياب: هل هو ناجم عن قصور في الإحصاء أم عن هجرة لأهالي هذه القرية الشيعية على الأرجح. أم بسبب ضمّها الى ناحية أخرى؟

٢ - لا ذكر لدير قنوبين كذلك في الإحصاء الثاني.

٣ - ذُكرت مزرعة التفاح (الإحصاء الأول) بأنها مزرعة برغم كونها مأهولة بعائلتين، ولم ترد في الإحصاء الثاني.

٤ - وردت بقاع كفرا في الإحصاء الأول بأنها قرية دون ذكر عدد السكان (ويمكننا الافتراض بوجود ٧ عائلات في هذه القرية؟) بينما تمّ ذكرها مع عدد ذكورها الناضجين في الإحصاء الثاني.

٥ - تحوّل بريسات من قرية في الإحصاء الأول إلى مزرعة في الإحصاء الثاني.

٦ - وجود مزارع في الإحصاء الثاني لم تكن موجودة في الإحصاء الأول.

إذا كان هذا هو الإطار الجغرافي والإداري لناحية بشرّي في القرن السادس عشر، فما هو المصدر الذي ارتكز عليه بحثنا في تحديد هذا الإطار من جهة، وفي عرض الديمغرافية التاريخية لهذه المنطقة من جهة أخرى؟ وماذا عن تحديدنا للديمغرافيا التاريخية كعلم حديث العهد؟

اولاً: حول دفاتر التحرير او الطابو دفتري:

لقد جاءت دفاتر التحرير العثمانية محصلاً متقدماً لانجاز بيروقراطية الدولة الاسلامية في اواخر القرون الوسطى. والهدف من وضع هذه الدفاتر كان تنظيم جمع الضرائب على السكان وعلى الانتاج. وكان يقوم بانجاز هذه المهمة لجنة تدعى (تحرير حياتي) وفي كل ولاية كان يوجد موظف مختص بهذا المجال يدعى ايل يازجي سي. والدفاتر التي كان يتم انجازها كانت تسمى (الطابو دفتري او دفتر خاقاني). وهي تقسم، من حيث مضمونها، الى ثلاثة انواع:

أ - الطابو دفتري مفصّل وهو يتضمن جملة امور منها:

- القانون نامة الذي ينظم الولاية او اللواء.
- اسم الولاية او اللواء مع التقسيمات الادارية.
- اسماء القرى والمزارع.
- اسماء الذكور الناضجين في القرى مع محاصيلها المرتقبة.
- اسماء التيمارجيين المكلفين بجمع الضرائب.
- اسماء الاوقاف ومداخيلها اذا وجدت.
- اسماء احياء المدن وسكانها.
- تركيب العناصر السكانية لجهة انتماءاتها الدينية او العرقية او لجهة انتمائها للحضر ام للبدو.

- نسبة العازبين والمتزوجين بين السكان الناضجين من الذكور.

- غير ذلك من المعلومات الاقتصادية (انواع الضرائب وانواع الانتاج. . .) والمعلومات الديمغرافية.

ب - الطابو دفتري اجمال وهو يعطي فكرة عامة ترتكز على ما ورد في دفاتر المفصّل. وعادة ما يتطرق الى الكمية العامة للضرائب وربما يتناول العدد العام للذكور الناضجين.

ج - دفتري دردست أو ما يسمى دفتر الروزنامجة، وكانت تسجل فيها بدقة المعلومات التي ترد الى الخزانة بشكل تفصيلي.

دفاتر المفصّل والإجمال كانت تنجز بعد احتلال الدولة مباشرة لمقاطعات جديدة، كما كانت تجدد كل فترة من الزمن. كما انها كانت تنجز مع استلام السلاطين لمسؤولياتهم الجديدة. أما التحريرات المستمرة فكانت تنجز إبّان مراحل نهضة السلطنة. وكذلك فإن عوامل الموت والمرض كانت توجب اعادة النظر بالاسماء المسجلة. وقد سجّل المؤرخ عمر لطفي برقان أن هذه الإحصاءات توقفت مع نهاية عهد السلطان سليم الثاني.

هذه الدفاتر لها قيمة كبيرة الأهمية على صعيدين مباشرين: التاريخ الاقتصادي والديموغرافيا التاريخية. فانطلاقاً من هذه الدفاتر يمكن أن نستخرج كمية كبيرة من الإحصاءات والمعلومات التي تعود الى فترة زمنية هامة. وهناك تفاوت بين الباحثين حول تقويم أهمية هذه الدفاتر. فبالنسبة لعمر لطفي برقان ان هذه الوثائق تؤمن كل ما يتطلبه الباحث في التاريخ الإقتصادي والاجتماعي. أما بالنسبة لخالدي ناجي فقد اعتبر أن تسجيل الضرائب والعشور تبين المداخيل المرتقبة أكثر مما تبين المداخيل التي تم الحصول عليها. أما المؤرخ كوك فإنه يعتقد أن اهميتها في مجال الديموغرافيا التاريخية هي أكثر سلبية. فهي لا تعطي المعلومات الدقيقة عن الأعمار والجنس للسكان. بينما يذهب برنارد لويس وكوهين الى الوقوف في حد وسط بين التيار المغرق في تقديره الايجابي والتيار المغرق في تحفظه(١٤).

ومهما يكن من أمر فوثائق الطابو دفتري، برغم كل الانتقادات التي يمكن أن توجه الى مدى دقتها، فإنها تبقى المصدر شبه الوحيد، حيث يمكننا أن نتعرّف على معلومات لا مثيل لها، في نفس الفترة، في أرشيفات الدول التي كانت متزامنة مع الدولة العثمانية في مناطق أخرى من العالم.

ثانياً: في ماهية الديموغرافيا التاريخية

الديموغرافيا التاريخية هي علم يُعنى بدراسة الكمّ السكاني الذي عاش في الماضي. وهذا العلم هو اختراع فرنسي في الأساس(١٥). وهذا العلم لا يمكن أن يكون علماً صافياً منعزلاً بنفسه، فهو يضع على المحك نظام القيم والتقاليد، والمعتقدات الدينية، والسلوك الجنسي، والأنماط الثقافية والمنظومات الذهنية الجماعية التي كانت تحدد مواقف المجموعات البشرية إزاء مسائل أساسية كالولادة والزواج والموت. من هذا المنظار فالديموغرافيا التاريخية هي أشمل وأعمّ من أن تكون

وصفاً كمياً لعدد المتوفين في مجتمع معيّن(١٦).

والجدير بالملاحظة أن الديموغرافيا التاريخية هي علم حديث العهد ولكنها تتطور بسرعة. وثمة مقالات ومؤلفات، في اللغات الفرنسية والانجليزية خاصة، كرّست لمعالجة منهجيات البحث في هذا المضمار، وبالمقابل فثمة ابحاث قليلة تناولت تحديد هذا العلم أو توضيح تشعباته، ومدى صلته بسائر العلوم المساعدة وكذلك تحليل موضوعه وهدفه وقيمته. وربما يعود ذلك الى صعوبة هذه المهمة. ومهما يكن من أمر فإن البحث في مجال تزايد السكان من سنة الى أخرى هو بالتأكيد موضوع الديموغرافيا التاريخية. والتركيز في هذا المجال يتمحور حول وصف التزايد السكاني من خلال تغير الولادات والوفيات وحصول الهجرة. وهذه الظواهر يتمّ تفسيرها من خلال عوامل سن الزواج، والصحة العامة وما اليها. ويمكن معالجة التباينات بين المناطق وتفحّص معنى التحولات الديموغرافية بموازاة تداخلها مع السياسة والاقتصاد. هكذا يمكن التوصل الى فهم ثنايا التاريخ من خلال وصف ما حصل وأبعاد وخلفيات ذلك مع تفسير سببية هذه التحولات. ولكن الديموغرافيا التاريخية تختلف بعض الشيء. فقبل القيام بأي تحليل يجب الانطلاق من تعداد علمي للسكان من خلال إحصاء يقوم به موظفون معيّنون، وهذا يشكّل عملية ديموغرافية في مرحلة أولية. وإن أهمية الديموغرافيا التاريخية ترتكز على كونها تعيد تحليل المعطيات القديمة، وتستفيد من المصادر التي يمكن أن لا يكون لها أية صلات بالديموغرافيا التاريخية. وهذا العلم يبدو انه غير سهل. فمن ناحية يتضمن كل تعقيدات الديموغرافيا الحديثة ومن ناحية أخرى يتضمن كل ثغرات نسبية العلم التاريخية والشك الذي يمكن أن يحيط بأحداثه.

وثمة طريقان لولوج الديموغرافيا التاريخية:

الأولى من خلال المصادر،

والثانية من خلال موضوع الدرس.

وهذا العلم لا يقتصر على أخذ مصدر ومحاولة استغلاله الى الحدّ الأقصى، فإذا تمكنّا من الاستعانة بمصدرين أو أكثر يمكن أن نصل الى نتائج أكثر دقة، ذلك أن من المفضل القيام بمقارنة واحدهما بالآخر. وعلى صعيد آخر هناك توجه ينطلق من طرح نظرية مسبقة، فإما أن المعطيات تؤكد النظرية أو انها تنقضها. ومهما يكن من أمر فإن الإحصاء الرسمي هو المصدر الأكثر أهمية بالنسبة للديموغرافيا التاريخية. وهناك مجالان لاستغلال الإحصاء في هذا السياق. فإما أن نستفيد من النتائج العامة والمنشورة، وهذا يمكن أن يكون على صلة ايضاً بمصادر أخرى، وأما المجال الثاني فنستفيد فيه من المصادر الأولية لاستخراج نتائج غير معروفة. وفي هذه الحالة يتم التركيز على الأسماء، حيث يمكن أن نجد أسماء في احصائين غير متباعدين، أو أن نجد هذه الأسماء في نفس الوقت في إحصاء للولادات أو الموت أو في إحصاء عام. وعندما نعرف تماماً المدة الزمنية بين احصائين يمكننا أن نستخرج عمر الاشخاص المعينين. ولكن هذا النوع من العمل هو صعب جداً لأنه يفرض ملاحظة وتتبع مئات الأسماء لكي يتم التوصل الى حقائق ذات قيمة. وعندما يكون عملنا يتناول إحصاءً قديماً، فإن أمامنا مجالات واسعة للدرس وعلينا أن نحدد الأولويات التي نرغب التوصل إليها في البحث. وفي كل حال فإن من الضروري تحديد الإطار

المكاني والزماني للدراسة، فالديموغرافيا التاريخية تفترض التركيز على مقارنة الوضعيات السكانية في إطار محدد وضمن فترات زمنية مختلفة. وهذا الأمر يسمح بمعرفة التغيرات السكانية[١٧].
فإذا حصل تزايد في الوفيات يجب التفتيش عن أسباب ذلك من خلال عدة احتمالات:

إما الأوبئة

وإما الهجرة

وإما غلاء الأسعار الذي يؤدي الى تضاؤل الغذاء، والذي يجعل بدوره السكان عرضة للأوبئة والأمراض. وإن تحليل الحركات الفصلية للزواج تشير الى وجود كثافة فيه قبيل عيدي الفصح والميلاد في بعض البلدان ذات الأكثرية المسيحية[١٨].

إنطلاقاً مما تقدّم، وارتكازاً على إحصائين اطلعنا عليهما من خلال الطابو دفتري العثماني، يتعلقان بناحية بشرّي التي كانت تشكّل جزءاً من ولاية طرابلس، يمكننا أن نطرح نوعين من الملاحظات الأولية:

أ ـ حول موضوع هذين الاحصاءَين:

هناك نقاش واسع بين كبار المؤرخين المتخصصين في الديموغرافية العثمانية. فالبعض يشكك في دقة هذه الإحصاءات (امثال المؤرخ كوك)، والبعض الآخر يشيد بها ويعتبرها كافية لكل ما يتطلبه المؤرخ على صعيد التاريخ الاقتصادي والديموغرافي (أمثال عمر لطفي برقان) ـ كما ذكرنا سابقاً ـ وفي ظل غياب مصادر توازيها أو تفوقها أهمية فإن الباحث في الديموغرافية التاريخية للمناطق العثمانية لا بدّ له أن يرتكز على وثائق دفاتر التحرير المفصّلة مع الأخذ بعين الاعتبار جملة تحفظات:

١ ـ هذه الدفاتر تتضمن اسماء الذكور الناضجين (أي الذين يزيد عمرهم عن ١٥ سنة تقريباً وما فوق).

٢ ـ الاسماء المكتوبة هي اسماء الذكور مع اسماء آبائهم.

٣ ـ إذن لا وجود لاسماء الأولاد أو النساء.

٤ ـ بعض الأخطاء في الجمع، فإذا جمعنا اسماء (الخانة) أي المتزوجين مع عدد (المجرد) أي العازبين يمكن أن يكون ـ في حالات قليلة ـ أكبر أو أصغر من العدد الحقيقي المدوّن للأسماء في الدفتر.

٥ ـ هناك بعض النقص الناتج ربما عن المصاعب الجغرافية أو السهو، فبرغم تدوين قرية بقاع كفرا لم يذكر الدفتر أي ذكر لاسماء أو عدد الذكور فيها.

٦ ـ ثمة عدم وضوح على صعيد الانتماء المذهبي أو الديني. ففي الإحصاء الأول لا فصل بين اسماء المسلمين والمسيحيين، وكذلك لا توضيح لمذاهب المسلمين (شيعة، سنة الخ...) أو لمذاهب المسيحيين (موارنة، روم، يعاقبة الخ...) من هنا يوجد صعوبة، في القرى المختلطة، لفصل المسلمين عن المسيحيين.

٧ ـ هناك صعوبة في قراءة بعض الأسماء (للذكور وللقرى)، وربما هناك خطأ في كتابتها.

٨ ـ هناك نقاش واسع حول عدد السكان الذين تشكلهم الخانة فبرقان يرى أنه «لكي نعرف العدد العام للسكان ـ في الدولة العثمانية ـ يجب أن نضرب عدد الذكور بالرقم خمسة، مع ضرورة التحفظ إزاء هذا الرقم من الوجهة العلمية، إذ أنه يختلف حسب المناطق والطبقات الاجتماعية»[١٩]. بينما يطرح خليل ساحلي اوغلو ضرورة الضرب بالرقم ٦[٢٠]، ويطرح آخرون إمكانية اعتماد الرقم ٧[٢١]. وبرغم أننا اعتمدنا في دراستنا عن ديموغرافيا الكورة رقم ٥ مع زيادة ١٠٪ كما يطرح برقان، إلاّ أننا في هذا البحث نميل الى اعتماد الحل الوسط أي الضرب بالرقم ٦.

٩ ـ لا تتضمن الدفاتر عرضاً مفصلاً لمهن الذكور مع استثناءات ضئيلة وبخاصة في مجال الرتبة الدينية (كذكر لقب قس مثلاً).

١٠ ـ حول كيفية جمع المعلومات، هناك جملة احتمالات تدارسها الباحثون: فإما أن الموظفين العثمانيين كانوا يتنقلون من منزل الى آخر، وإما أنهم كانوا يذهبون الى مكان محدد حيث كان يجب أن يأتي الرعايا موضوع الإحصاء ويقدمون اسماءهم وأسماء عائلاتهم، وإما أن زعماء القرى أو العشائر كانوا هم الذين يقدمون المعلومات اللازمة حول السكان. وفي كل الاحوال كان هناك مجال لوجود احتمال عدم الدقة الصارمة.

ب ـ حول كيفية استغلال الاحصاءَين في مجال معرفة الديموغرافية التاريخية لناحية بشرّي:

إذا كانت كل التحفظات التي عرضناها سابقاً صحيحة، فإن الصحيح أيضاً هو أن المعلومات الواردة في الطابو دفتري تأخذ قيمتها الكبيرة وأهميتها بالمقارنة مع الإحصاءات الموجودة في القرون التي سبقت أو بالمقارنة مع الإحصاءات التي عرفتها الدولة العثمانية في المرحلة اللاحقة. كما أن هذه الإحصاءات ليست موجودة لدى أية دولة أخرى في نفس الفترة. وإن مبدأ الإحصاء لم تعرفه الدول إلا في الفترة الحديثة والمعاصرة. إن واقع وجود «دفاتر تحرير» متلاحقة، تغطي فترة زمنية محددة، وإن واقع وجود أحداث تسمح لنا بالمراقبة، كل ذلك يجعلنا قادرين على استعمال هذه الإحصاءات كوثائق للتغيرات والتطورات. وهذه الوثائق تبين لنا أحداثاً أو مؤشرات عن حياة السكان عبر التغيير في عدد الأسماء والمعلومات التي تعكسها من خلال الجداول الموجودة. فعلى قاعدة تحليل هذه المؤشرات الاحصائية يمكننا أن نتوصل الى معرفة الكثير عن النماذج الاجتماعية والاقتصادية للزمن التاريخي المتعلق بناحية بشرّي. وكذلك نستطيع أن نتعرف على بنية المجتمع وحركة التنظيم الإداري وتطور المجموعات الديموغرافية وتحولات النظم وأشكال الانتاج الزراعي والحرفي وكميته على نحو يقرب من الدقة العلمية.

في الإحصاء الأول المتعلق بناحية بشرّي، عام ١٥١٩، يمكننا إيراد الملاحظات التالية:

١ ـ عدد الصفحات المتعلقة بالمعلومات عن قرى هذه الناحية هي من ص ١٠٣ الى ص ١١٨.

٢ ـ بعد العنوان العام في الصفحة ١٠٣ (ناحية بشرّي) يتم عرض اسماء القرى والمزارع. وبعد كل اسم يتردد مصطلح «تابع بشرّي».

٣ ـ وبعد المصطلح السابق يشار الى الوضعية القانونية للقرية:

ـ خاص مال شاهي .

ـ زعامت ، مع الاسم .

ـ تيمار ، مع اسم التيمرجي .

ـ وقف مع اسم الوقف .

ـ في بعض الأحيان تكون القرية الواحدة موزعة بين الوقف والتيمار أو غير ذلك .

٤ ـ بعد ذلك يتم عرض أسماء الذكور الناضجين ضمن خطوط أفقية من سبعة أسماء . وعلى امتداد الصفحة تتالى الأسماء ضمن شكل هندسي واضح .

٥ ـ مع انتهاء الاسماء يعطى المجموع العام للسكان على مستويين:

ـ عدد الخانات (أي المتزوجين)

ـ عدد المجرد (أي العازبين) .

كأن يقال مثلاً عن بشرّي ، في نهاية عرض الاسماء ، خانه ٥٥ ومجرد ٩ .

٦ ـ بعد ذلك تتحدد كمية ونوعية الضرائب المفروضة إما للوقف مع تحديد نوعيته ، وإما لخزينة الدولة .

٧ ـ لا وجود لإشارة تدلّ على وجود جزية على النصارى باستثناء الجزية الجماعية المشار اليها مع ذكر دير قنوبين[٢٢] .

٨ ـ تجمع أنواع الضرائب المتعددة في رقم نهائي هو الذي يجب تأمينه للخزينة من خلال التيمرجي .

٩ ـ بالنسبة لتوزع القرى بين الوقف والتيمار يمكننا تسجيل ما يأتي:

ـ وجود أربع زعامت[٢٣] .

ـ وجود ٣٧ تيمارجي[٢٤] .

ـ وجود ١١ قرية تحت عنوان خاص مال شاه ضمنها بشرّي واهدن .

ـ وجود ١٠ أوقاف[٢٥] (منها ذري ، ومنها للأبراج) .

١٠ ـ مجموع ما كانت تدفعه قرى ناحية بشرّي من ضرائب (عبر الخاص والزعامت والتيمار والوقف والجزية) لا تقل عن ٤٠٧ , ١٧٤ آقجة . (راجع الملحق رقم ١) .

أما في الإحصاء الثاني المتعلق بناحية بشرّي ، في عام ١٥٧١ ، فيمكننا إيراد ما يأتي:

١ ـ عدد الصفحات المتعلقة بناحية بشرّي ، في هذا الإحصاء ، هي من صفحة ١٢٦ حتى صفحة ١٤٥ ، ومن صفحة ٣٠٠ الى صفحة ٣٠١ .

٢ ـ لقد طرحنا جملة تساؤلات حول وضعية هذا الدفتر في بحثنا عن ناحية الكورة ويمكن

العودة اليها ولا نرى ضرورة للتكرار[٢٦] .

٣ ـ يبدأ الدفتر بذكر «ناحية بشراي در لواء طره بلوس» .

٤ ـ بعد ذلك يذكر قرية نفس بشراي تابع مزبور (أي تابعة للناحية المذكورة) .

٥ ـ مقابل اسم القرية يذكر الوضعية القانونية للقرية .

٦ ـ هناك ٣٥ قرية (خاص) و٣ تيمارات و٣ أوقاف وست مزارع لا ذكر لنوعية الجهة التي تبعث اليها ضرائبها ، وعلى الأرجح إنها كانت من الخاص .

٧ ـ ثم تعرض اسماء الذكور الناضجين ضمن خطوط أفقية من ستة أسماء ، وبعدها تتالي الأسماء ضمن شكل هندسي أقل وضوحاً من الدفتر السابق .

٨ ـ تُفصل أسماء المسلمين عن أسماء المسيحيين . فالأولى تذكر في مطلع الأسماء وتذكر عدد الخانات دون ذكر المجرد .

٩ ـ بعد ذلك يتم عرض أسماء المسيحيين تحت عنوان «جماعت نصارى درقرية مزبور» مع لحظ مصطلح بارقم سرية تتعلق بكمية الجزية على كل ذكر ناضج[٢٧] . ويجمع عدد الخانات في آخر الأسماء دون ذكر «المجرد» أو العازبين .

١٠ ـ بعدها يتم تفصيل الضرائب بشكل واضح ، ويمكننا من خلال ذلك معرفة محاصيل القرية من الحبوب أو الفواكه أو العنب أو الزيتون ، وكذلك يمكننا معرفة عدد معاصر الزيت والعنب وعدد الطواحين ودواليب الحرير وما إليها (راجع الجدول رقم ٢) .

١١ ـ مجموع الضرائب التي تدفعها ناحية بشرّي في عام ١٥٧١ ، للخزينة وللأوقاف ، كانت لا تقل عن ١٩١٦٨٦ آقجة .

١٢ ـ كانت كمية الجزية المدفوعة من هذه الناحية لا تقل عن ٩٩٣٥٩ آقجة في تلك السنة . أي أن مجموع الضرائب المقدمة من هذه الناحية ـ بما فيها الجزية ـ كانت ٢٩١٠٤٥ آقجة .

١٣ ـ إن أكثرية القرى كانت تربي الماعز وكذلك تنتج العسل .

إنطلاقاً من هذه الملاحظات العامة حول الاحصاءَين المتعلقين بناحية بشرّي يمكننا أن نستنتج جملة أمور تساعدنا في فهم الوجود الديموغرافي في هذه المنطقة الجبلية من شمال لبنان:

١ ـ هناك تنوّع في الزراعات كالحبوب والشعير ، أو الزيتون الذي هو انتاج المناطق المتوسطة الإرتفاع عن سطح البحر .

٢ ـ الكرمة موجودة بكثافة في قرى جبلية كبقاع كفرا وحصرون وبشرّي واهدن .

٣ ـ عدد الطواحين التي تعمل صيفاً شتاءً ، في الناحية ، هو ٢٢ مع لحظ وجود ٥ طواحين تعمل فقط في فترة الشتاء . وهذا الأمر يعني توفر المياه الجارية طوال أيام السنة (مع العلم أن الخوري فرنسيس رحمة يذكر في تاريخه ص ١٤٦ ـ ١٤٧ ، وجود ٢٣ طاحوناً في

بشرّي نفسها ولكن في الفترة اللاحقة).

٤ - ثمة وجود لـ٥٢ معصرة عنب منتشرة في أغلب قرى هذه الناحية. وربما نستطيع الاستنتاج أن هذه المعاصر تؤمن الدبس وهو غذاء رئيسي للفلاح الجبلي، كما أن اعداد النبيذ كان يتم فيها وهو مادة اساسية للقيام بالقداديس الدينية، إضافة الى امكانية شربه في أوقات معينة.

٥ - ثمة وجود لـ٦ معاصر من الزيت متواجدة في القرى الأكثر انخفاضاً في هذه الناحية.

٦ - هناك ٢٦ دولاب حرير تؤمن الاكتفاء الذاتي لملابس السكان، والأرجح أن شرانق الحرير هي المادة الأساسية التي تصنع منها هذه الملابس.

أن توافر المناخ الجيّد، وتوفر عناصر الغذاء الأساسية في هذه الناحية وفّرت للسكان مجالاً حيوياً للعيش والتكاثر. ولا شك أن الديموغرافية التاريخية تتأثر، الى حد كبير، بعناصر الغذاء والمناخ.

في ضوء كل هذه الملاحظات الأساسية، وفي ضوء تقنيات البحث ننتقل الى عرض بعض المعطياتالاحصاءين التي نستخلصها من الإحصائين العثمانيين.

ثالثاً: قرى ناحية بشرّي بين الانتماء الديني للسكان ونسب الزيادة السنوية والزواج:

١ً - الوضعية في الإحصاء الأول:

يبين هذا الإحصاء أن هناك ثلاثة أنواع من القرى التي عددها ٤٠ قرية(٢٨).

أ - القرى المختلطة: وعددها ثلاث وهي نفس بشرّي، راسكيفا، تولا.

ب - القرى التي يسكنها مسيحيون فقط وعددها ٣٥ قرية هي على التوالي: إهدن، اجبع الجبل، ابريسات، ادنيت، اقنات، ايطو، بان، بقرقاشا، برحليون، بزعون، بصلوقيت، بلوزا، بنشعي، بنهران، بيلا، بقاع كفرا، حدث، حدشيت، حصرون، حورونا، راش دبين، سبعل، سرعل، طرزا، عبدين، عين تورين، كرم سدي، كفرصارون، كفرصغاب، كفرفو، متريت، موسى، نيحا، مزرعة التفاح.

ج - القرى التي يسكنها مسلمون فقط وعددها قريتان هما: افقة(٢٩) وغرزتا.

٢ً - الوضعية في الإحصاء الثاني:

يتبين من هذا الإحصاء أن قرى هذه الناحية تتوزع على النحو التالي:

أ - القرى المختلطة: لا تزال هي نفسها (بشرّي، راسكيفا وتولا).

ب - القرى التي يسكنها مسيحيون فقط هي نفسها القرى المذكورة سابقاً مع تحوّل غرزتا الى المسيحية، ومع تسجيل ذكر للسكان المسيحيين في بقاع كفرا. إضافة الى تحوّل ابريسات الى مزرعة غير مأهولة بالسكان وكذلك غياب مزرعة التفاح عن الذكر، مع لحظ

قرية مسيحية جديدة في الناحية هي ادنون.

ج - عدم ذكر لقرية أفقة التي كانت مسكونة من قبل المسلمين.

ماذا نستنتج من المقارنة بين وضعيات القرى في الاحصاءَين؟

١ - استمرّ الاختلاط مقتصراً على القرى الثلاث في الاحصاءَين.

٢ - اختفاء ذكر قرية افقا التي كانت مأهولة بالمسلمين وذلك في الإحصاء الثاني.

٣ - تحوّل قرية غرزتا(٣٠) من إسلامية إلى مسيحية.

٤ - اختفاء مزرعة التفاح(٣١).

٥ - عدد المسلمين الذكور الناضجين بمجموعه في الإحصاء الأول هو ٤٠ ذكراً، أي ما يقارب ٢٤٠ نسمة إذا ما اعتبرنا أن الخانة هي ٦ افراد.

٦ - عدد المسيحيين من الذكور الناضجين في الإحصاء الأول هو ٨٦٣ ذكراً ما عدا بقاع كفرا. فاذا افترضنا أن هذه القرية كانت مسكونة من سبعة ذكور، فيصبح المجموع العام ٨٧٠ ذكراً. أي أن عدد مجموع أنفس النصارى في ناحية بشرّي يصبح ٨٧٠ × ٦ = ٥٢٢٠ نفسا.

٧ - في الإحصاء الثاني أصبح عدد المسلمين الذكور ٢٤ ذكراً أي انه تناقص ١٦ ذكراً. ومجموع انفس المسلمين في هذه الناحية تقريباً، عام ١٥٧١، هو ٢٤ × ٦ = ١٤٤ نسمة.

٨ - عدد النصارى الذكور الناضجين في ناحية بشرّي تبعاً للإحصاء الثاني هو ١١١٠ ذكور، أي أن مجموع النفوس ١١١٠ × ٦ = ٦٦٦٠ نسمة. بينما عدد التزايد في الذكور خلال ٥٢ سنة بلغ ٢٤٧ ذكراً.

٩ - مجموع عدد الذكور في الإحصاء الثاني ١١٣٤ أي ما يوازي ٦٨٠٤ نسمة.

١٠ - وانطلاقاً مما تقدّم فإن نسبة التناقص في المسلمين في هذه الناحية كانت تقريباً ٦٠٪ بينما كانت نسبة تزايد المسيحيين ٢٧,٥٪.

١١ - نسبة النمو السنوي في كامل الناحية تبلغ ٤,٢٤ بالألف.

١٢ - بينما تزايد عدد المسيحيين بنسبة ٤,٦٩ بالألف سنوياً نلاحظ أن المسلمين تناقص عددهم بنسبة ٩,٧٧ بالألف سنوياً. (راجع الملحق الجدول رقم ٣).

١٣ - إذا انطلقنا من أن نسبة مساحة ناحية بشرّي هي ٢٢٠ كلم٢(٣٢)، فتكون الكثافة السكانية في الإحصاء الأول، في تلك الناحية، هي في حدود الخمس والعشرين نسمة في الكلم المربع. أما في الإحصاء الثاني فتكون الكثافة ٣١ نسمة في الكلم المربع.

١٤ - إذا قارنّا الزيادة العامة بالألف سنوياً في ناحية بشرّي وهي التي تبلغ ٤,٢٤ بالألف سنوياً مع الزيادة السنوية في نفس الفترة وفي مناطق أخرى من السلطنة، كمنطقة البلقان، فإننا

نلاحظ أن الزيادة هي أكبر في البلقان منها في ناحية بشرّي ، إذ انها كانت تتراوح - بين أواخر القرن ١٥ واوائل القرن ١٦ - بين نسبة ٥ , ٦ الى ٥ , ٨ بالألف سنوياً[٣٣] .

١٥ - إذا قارنّا الزيادة الحاصلة في ناحية الكورة (وهي ٦٨ , ٦ بالألف سنوياً) مع الزيادة الحاصلة في ناحية بشرّي ، نلاحظ أن الزيادة في الكورة هي أعلى بنسبة ٢٩ , ٢ بالألف . والأرجح أن عامل المناخ (الهجرة من الثلوج الى السهل) إضافة الى عوامل سياسية واجتماعية ودينية أخرى هي السبب في هذا التباين .

١٦ - يذكر بروديل[٣٤] أن نسبة الكثافة السكانية في حوض المتوسط هي ١٧ في الكلم المربع ، مع عدم الأخذ بعين الاعتبار المساحات الصحراوية ، وان الكثافة في نابولي هي ٥٧ نسمة في الكلم المربع ، وفي ايطاليا عامة ٤٤ في الكلم المربع ، وفي فرنسا ٣٤ في الكلم المربع ، وفي اسبانيا والبرتغال ١٧ نسمة في الكلم المربع ، وإذا اخذنا بعين الاعتبار وجود الجبال العالية غير المسكونة والأودية والمنحدرات الصخرية وغيرها ، فإن النسبة المذكورة للكثافة السكانية في ناحية بشرّي هي نسبة مرتفة الى حدّ ما .

١٧ - يعتبر الباحثون في ديموغرافية أوروبا الغربية والبلقان وآسيا الصغرى أن القرن السادس عشر هو قرن مضاعفة السكان . وبينما انتقل عدد سكان حوض المتوسط من ٣٠ - ٣٥ مليون نسمة عام ١٥٠٠ الى ٦٠ - ٧٠ مليون نسمة عام ١٦٠٠ أي بنسبة تقارب ٧ بالألف ، وبينما تزايد عدد سكان الدولة العثمانية من ١٢ - ١٣ مليون (مطلع حكم سليمان القانوني ١٥٢٠ - ١٥٣٠)[٣٥] الى ١٧ - ١٨ مليون نسمة عام ١٨٥٠ فإلى ٣٠ - ٣٥ مليون عام ١٦٠٠ ، أي بنسبة ٤٣ , ٥ بالألف ، فإننا نلاحظ أن الزيادة السكانية في ناحية بشرّي هي أقلّ منها في أوروبا أو في السلطنة العثمانية بشكل عام .

ومهما يكن من أمر فإن الاستنتاج الأساسي الذي يمكننا التوقف عنده هو أن نسبة التزايد السكاني في ناحية بشرّي هي نسبة متوسطة تقريباً . والأرجح أن الطبيعة الجغرافية للمنطقة إضافة الى عوامل سياسية واقتصادية واجتماعية ودينية أخرى ما كانت لتسمح بتزايد ديموغرافي موضعي أكثر . وعلى الأرجح أن الهجرة الى المناطق الأخرى وربما الى الخارج (قبرص خاصة) كانت من بين الأسباب لعدم التصاعد الديموغرافي . علماً أن الدكتور كمال الصليبي الذي قام بأبحاث حول هذه المنطقة ، أكّد في أكثر من بحث على أهمية حركة النزوح خلال الشتاء الى الكورة والزاوية وضواحي طرابلس . لا بل إنه يشدّد على خلوّ كبير تعانيه المنطقة في فصل الشتاء .

٣ً - حول حجم القرى ونسبة التزايد فيها بين الاحصاءَين:

من حيث الأهمية في عدد السكان يمكننا أن نصنّف القرى ضمن خمس مجموعات في الإحصاء الأول:

أ - إهدن وهي تحتوي على ١٧٦ ذكراً ناضجاً .

ب - حدشيت فيها ٧٠ ذكراً ثم الحدث وفيها ٦٨ وبعدها تأتي بشرّي وفيها ٦٤ ذكراً ، ثم حصرون وفيها ٤٨ ، وتالياً اقنات وفيها ٤٢ .

ج - أما القرى التي يتراوح عدد ذكورها الناضجين بين ٢٠ - ٣٠ فهي على التوالي اجبع ، كرم سدى ، راسكيفا ، ايطو ، بان ، سبعل ، عبدين ، بنهران .

د - والقرى التي يتراوح ذكورها بين ١٠ - ٢٠ فهي التالية: تولا ، بقرقاشا ، عين تورين ، افقه ، متريت ، ادنيت ، كفرصغاب ، نيحا .

هـ - أما القرى التي يقل عددها عن ١٠ ذكور فهي التالية: ابريسات ، برحليون ، بزعون ، بصلوقيت ، بلوزا ، بنشعي ، بيلا ، حورونا ، راش دبين ، سرعل ، طرزا ، غرزتا ، كفرصارون ، كفرفو ، موسى ، مزرعة التفاح . (راجع الجدول رقم٤) .

في ضوء نفس المعايير كيف يمكننا تصنيف تلك القرى تبعاً للإحصاء الثاني؟

أ - إهدن اصبح عدد سكانها ٢٠٠ ذكر .

ب - بشرّي أصبحت الثانية (٩٨ ذكراً) يتبعها حصرون (٨٥) فحدشيت (٨٤) ، ثم الحدث (٥٤) ، بعدها كرم سدى (٤٧) ، ايطو (٤٦) ، فإجبع الجبل (٤٣) .

ج - القرى التي يتراوح عدد ذكورها بين ٤٠ و٣٠ هي التالية: بان ، بقرقاشا ، سبعل ، عين تورين .

د - القرى التي يتراوح ذكورها بين ٣٠ و٢٠: متريت ، ادنون ، اقنات ، تولا .

هـ - القرى التي يتراوح عدد ذكورها بين ١٠ و٢٠: بزعون ، بصلوقيت ، بلوزا ، بنشعي ، بنهران ، بقاع كفرا ، سرعل ، كفرصارون ، كفرصغاب ، كفرفو ، موسى ، نيحا .

و - أما القرى التي يقل عددها عن ١٠ ذكور فهي التالية: بيلا ، حورونا ، راش دبين ، طرزا ، عبدين ، غرزتا .

إذا انتقلنا من عرض العدد العام للذكور في كل قرية التي تفحّص نسب الزيادة السنوية بالألف فما هي أبرز النتائج التي يمكننا أن نتوصل إليها؟

إنطلاقاً من دراسة الزيادات السنوية التي حصلت بالألف يمكننا أن نصنّف قرى ناحية بشرّي ضمن ٩ فئات (راجع الجدول رقم ٥) .

١ - فئة القرى التي حصلت الزيادة فيها أكثر من ١٥ بالألف وهي على التوالي: برحليون ٢٨ , ٣٨ بالألف ، بصلوقيت ٣ , ١٨ بالألف ، كفرصارون ١٥ , ٧١ بالألف .

٢ - فئة القرى التي حصلت فيها الزيادة بين ١٥ و١٠ بالألف: بلوزا ٤ , ١٣ بالألف ، بقرقاشا ١٢ , ٨٧ بالألف ، سرعل ١٢ , ١٦ بالألف ، حصرون ١١ بالألف ، ادنيت ١٦ , ١٠ بالألف .

٣ - فئة القرى التي حصلت فيها الزيادة بين ١٠ و٨ بالألف: عين تورين ٩ , ٨٧ ، أيطو ٩ , ٥٩ ، بزعون ٨ , ٧٢ ، بشرّي ٨ , ٢٢ .

٤ - فئة القرى التي حصلت فيها الزيادة بين ٨ و٦ بالألف: نيحا ٧ , ٨٢ ، بنشعي ٧ , ٨٢ ،

كرمسدي ٤ ,٧، متريت ٣٩ ,٧، راسكيفا ٩٩ ,٦، سبعل ٣٧ ,٦، كفرفو ٥٤ ,٥.

٥ ـ فئة القرى التي حصلت فيها الزيادة بين ٦ و٤ بالألف: موسى ٥٤ ,٥، حورونا ٥٤ ,٥، راشدبين ٥٤ ,٥، بان ١٧ ,٥، غرزتا ٣٠ ,٤.

٦ ـ فئة القرى التي حصلت فيها الزيادة بين ٤ و٢ بالألف: حدشيت ٥١ ,٣، إهدن ٤٦ ,٢.

٧ ـ فئة القرى التي حصلت فيها الزيادة بين ٢ وصفر بالألف: تولا ٩٢ ,١، اجبع ٨ ,١.

٨ ـ فئة القرى التي حصل فيها تناقص من صفر الى ٥ بالألف: كفرصغاب ٩٦ ,٢−، بنهران ١٢ ,٣−، حدث ٤٢ ,٤−.

٩ ـ فئة القرى التي حصل فيها تناقص من ٥ وما تحت بالألف: بيلا ٧٦ ,٧−، طرزا ٧٦ ,٧−، اقنات ١٨ ,٩−، عبدين ٧٨ ,٢١−.

٤ ـ حول نسبة العازبين والمتزوجين في الإحصاء الأول:

لقد ورد في الإحصاء الأول ذكر واضح لعدد المتزوجين والعازبين، كما ذكرنا. بينما في الإحصاء الثاني هناك عدم دقة في هذا المجال، لذلك سيقتصر عرضنا وتصنيفنا على ما ورد في الإحصاء الأول. وفي هذا المجال يمكننا أن نصنف القرى، لجهة نسب الزواج الى أربع فئات:

١ ـ **الفئة الأولى**: القرى التي تبلغ نسبة الزواج فيها للذكور الناضجين مئة بالمئة وهي: بنشعي، بيلا، تولا، راش دبين، سرعل، غرزتا، كفرصغاب، كفرفو، مزرعة التفاح.

٢ ـ **الفئة الثانية**: القرى التي تبلغ فيها نسبة الزواج ما بين ٩٠ و١٠٠٪ وبالمقابل تبلغ نسبة الزواج ما بين ١ و١٠٪.

بان نسبة المتزوجين ٩٦٪ والعازبين ٤٪

افقه نسبة المتزوجين ٩٤٪ والعازبين ٦٪

ادنيت نسبة المتزوجين ٩٢٪ والعازبين ٨٪

حدشيت نسبة المتزوجين ٩٢٪ والعازبين ٨٪

كرمسدي نسبة المتزوجين ٩٠٪ والعازبين ١٠٪

٣ ـ **الفئة الثالثة**: القرى التي تبلغ فيها نسبة الزواج ما بين ٩٠ و٨٠٪ وبالمقابل تبلغ نسبة الزواج ما بين ١٠ و٢٠٪.

الحدث ونسبة المتزوجين فيها ٨٨٪ والعازبين ١٢٪

كفرصارون ونسبة المتزوجين فيها ٨٧٪ والعازبين ١٣٪

عبدين ونسبة المتزوجين فيها ٨٦٪ والعازبين ١٤٪

إهدن وبشرّي وراسكيفا وأيطو نسبة المتزوجين فيها ٨٥٪ والعازبين ١٥٪

اجبع ونسبة المتزوجين فيها ٨٤٪ والعازبين ١٦٪

اقنات وبقرقاشا وحصرون وعين تورين ونيحا نسبة المتزوجين فيها ٨٣٪ والعازبين ١٧٪

بنهران نسبة المتزوجين فيها ٨٠٪ والعازبين ٢٠٪

٤ ـ **الفئة الرابعة**: القرى التي تقل فيها نسبة المتزوجين عن ٨٠ بالمئة:

سبعل ونسبة المتزوجين فيها ٧٨٪ والعازبين ٢٢٪

موسى ونسبة المتزوجين فيها ٧٧٪ والعازبين ٢٣٪

حورونا وطرزا ومتريت ونسبة المتزوجين فيها ٦٦٪ والعازبين ٣٤٪

هذا على صعيد نسب العازبين في القرى ونسب المتزوجين. أما إذا حاولنا أن نتقصى النسبة العامة للمتزوجين والعازبين في ناحية بشرّي عامة فيمكننا أن نتوصل الى أن نسبة العازبين هي في حدود ٩٣ ,١٢ بالمئة تقريباً بينما نسبة المتزوجين هي في حدود ٨٧٪.

وإذا قارنا هذه النسب بما توصلنا اليه في ابحاثنا حول ناحية الكورة وانه في نفس الفترة لأمكننا الاستنتاج أن نسبة العازبين هي أكبر في الكورة إذ بلغت ٦٩ ,١٧٪. وهذا الأمر غير مستغرب، فالبيئة الفلاحية الجبلية، بالاضافة الى تقاليد الزواج عند الموارنة التي كانت تسمح بالزواج في سن مبكر (١٤ سنة للذكر و١٢ سنة للبنت)[٣٦]، يمكن أن تفسّر هذا الفرق بين الكورة وجبّة بشرّي.

ما يجدر ذكره في هذا المجال أيضاً أن قريتا غرزتا وأفقا المسلمتين بالكامل هما من القرى التي قلّ فيها عدد العازبين (غرزتا لا وجود للعازبين فيها، وافقه نسبتهم ٨٨ ,٥٪).

رابعاً: ملاحظات حول خلفيات الوضع الديموغرافي لناحية بشرّي قبيل وإبّان القرن السادس عشر:

لا شك بأن العدد الذي نستنتجه من خلال احصاءات الطابو دفتري المعروضة قد يفاجئ الباحث الذي يستند فقط الى المراجع التقليدية. لا بل يحاول بعض المؤرخين الاستناد الى مصادر ورسائل للبطاركة الموارنة تتكلم عن جهوزيتهم لوضع خمسين ألف مقاتل ماروني تحت السلاح في هذه الفترة. ففي رسالة وجّهها البطريرك موسى العكاري (١٥٢٤-١٥٦٧) الى امبراطور النمسا شارلكان يقول (تاريخها ٢٥ آذار ١٥٢٧) «منذ أربع سنوات ونحن نترجى جلالتكم لكي تهتموا بمساعدتنا على نيل استقلالنا. وعندنا خمسون ألف من الرماة مدرّبون أحسن تدريب وعلى أتمّ استعداد لخدمتكم في الحرب الاستقلالية»[٣٧]. ويستشهد بها بعض المؤرخين الذين يخضعون هذا العلم لخلفيات ايديولوجية غير علمية[٣٨].

وعلى صعيد آخر يذكر اليانو، في ختام قصادته الأولى عام ١٥٧٨ ما يأتي:

«دعي الشعب الماروني بهذا الإسم نسبة الى منشئهم مارون الذي كان مصلحاً عندهم، وهم يسكنون غالباً في قرى جبل لبنان المواجهة للغرب والمطلّة على مدينتي طرابلس وبيروت، ما عدا بعض عائلات منهم تقيم في دمشق وحلب وطرابلس وجزيرة قبرس. وبالجملة فإن عددهم يصل الى اربعين الف نسمة تقريباً»[٣٩].

وبالرغم من الحذر الذي يجب أن نقارب معه الإحصاء العثماني، وبالرغم من الاخطاء الكثيرة التي يمكن أن نسجلها على دقّته من مثل عدم ذكر وجود للسكان في بقاع كفرا مثلاً في الإحصاء الأول برغم تسميتها قرية، وبرغم ما تذكره المصادر عن هذه القرية من أن زوجة المقدم جمال الدين يوسف أصلحت كنيسة مار حوشت في بقاع كفرا عندما خربت حنيتها»(٤٠).

وكذلك غياب ذكر قرى اخرى في الإحصاء الثاني من مثل قرية افقه، برغم كل هذه التحفظات تبقى الإحصاءات الموجودة في الطابو دفتري، وفي الفترة موضوع دراستنا، أقرب كثيراً للصحة من كل الأرقام المعطاة من قبل بعض الرحالة أو الآباء المرسلين بمهمات دينية الى المنطقة. ومهما يكن من أمر فإن الرقم الذي أعطاه اليانو ليس بعيداً جداً عن الحقيقة.

يبقى إذن أن نبحث في الأسباب والخلفيات التي أدّت الى هذا الضعف الديموغرافي في ناحية بشرّي إذ لا يعقل على سبيل المثال لا الحصر أن تكون بشرّي قاعدة للناحية ومطلقة لاسمها عليها، وأن تحتوي على هذا العدد الضئيل نسبياً من السكان. مع العلم أن المتعمقين في دراسة هذه الفترة، من الوجهة التاريخية كالدكتور كمال الصليبي يشيرون الى الغموض الذي يلف تاريخ هذه المنطقة قبل العام ١٣٨٢.

ألف: أبرز عوامل الضعف الديموغرافي قبيل الفتح العثماني:

ما هي العوامل التي يمكننا وضعها كفرضيات محتملة والتي كانت وراء هذا الضعف الديموغرافي للعديد من قرى ناحية بشرّي بوجه عام، وبخاصة وراء الضعف الديموغرافي لقصبة بشرّي، مركز الناحية، بشكل خاص؟

يمكننا في هذا السياق أن نطرح جملة احتمالات:

١ - هل أن الضربة العسكرية التي وجهتها قوات المماليك لسكان الجبّة أواخر القرن ١٣ أدّت الى الضمور الديموغرافي في هذه الناحية؟ فالدويهي يذكر أنه في أيار ١٢٨٣ «سارت العساكر الاسلامية الى فتح جبّة بشرّي فصعد شرقي طرابلوس العسكر في وادي حيرونا وحاصر إهدن حصاراً شديداً وفي نهار الاربعين ملكها بشهر حزيران فنهبوا وقتلوا وسبوا ودكوا للأرض القلعة التي بوسط القرية والحصن الذي على رأس الجبل؛ ثم انتقلوا الى بقوفا وفتحوها في شهر تموز وقبضوا على أكابرها واحرقوهم بالبيوت ونهبوا وسبوا ودكوها الى الأرض، وبعدما خربوا بالسيف أهالي حصرون وكفرسارون في الكنيسة توجهوا في الاثنين وعشرين من شهر آب الى الحدث؛ فهربوا اهلها الى العاصي وهي مغارة منيعة فيها صهريج للماء فقتلوا الذين لحقوهم وخربوا الحدث وبنوا برجاً قبال المغارة وابقوا فيه عسكر يكمن عليهم ثم هدموا جميع الاماكن العامية؛ واذ لم يقدروا يفتحوا قلعة حوقا التي قبال الحدث اشار عليهم إبن الصبحا من كفرصغاب بجر النبع الذي فوق بشرّي وتركيبه عليها فملكوها بقوة الماء لانها داخل الشير»(٤١). ويحاول الدبس أن يفسر خلفية هذه الحملة بوقوف الموارنة الى جانب الفرنج ضد المسلمين(٤٢).

لا شك أن عدد القتلى الذين سقطوا في هذه الحملة، وعدد الجرحى والمقعدين (وربما

الأسرى) اضافة الى الذين هجروا من القرى الى مناطق أخرى، مع الخراب الذي أصاب المنازل والأراضي الزراعية. كل ذلك كان له تأثيره العميق على الوضعية الديموغرافية لهذه المنطقة.

٢ ـ الفتنة المفتوحة بين الموارنة واليعاقبة في جبّة بشرّي:

لقد كتب الكثير من الابحاث والمؤلفات من قبل علماء الموارنة وغيرهم وكلها تركزت على الولاء المستمر من قبل الموارنة للإيمان الكاثوليكي. لكن بالمقابل كان هناك مؤلفات كثيرة أكدت باستمرار على التقارب ـ الى حد التطابق ـ بين الموارنة والسريان الاورثوذكس (اليعاقبة)، على الأقل حتى نهاية القرن الخامس عشر. وآخر المؤلفات التي تصب في هذا الاتجاه ما نشره المؤرخ ماتي موس Matti Moose مؤخراً(٤٣). ما يهمنا في هذا البحث ليس الجدل الديني واللاهوتي، وانما عرض بعض الصراعات الدموية بين الموارنة واليعاقبة والتي كان من جرائها التأثير سلباً على الوضعية الديموغرافية في جبّة بشرّي. وحسبنا في هذا السياق أن نركز على بعض أبرز المحطات:

أ ـ فتنة البطريك لوقا البنهراني (١٣٨٢ـ١٣٠٠):

يذكر الشماس انطونيوس العينطوريني «أن راهبي يانوح ودير نبوح افسدا رأي الناس ووقع الشقاق. وبلغت الأخبار الى رومية فأرسل البابا رسلاً تنذرهم ليرجعوا عن خلافهم. فلم يقبل البطرك رسل البابا لأنه سقط في البدعة (المنوفيزيقية) وكان يسمى لوقا من بنهران. وكثر الشر في البلاد قبل انشقاق المذهب»(٤٤). وانتخب بطريك آخر هو ارميا(٤٥). هذا الانشقاق أدى الى نتائج أقلّها احتدام الصراعات الأمر الذي أدى ـ في أقل تقدير ـ الى هجرات معينة من القرى.

ب ـ الصراع بين المقدمين وبين الأهالي (أواخر القرن ١٣):

كان الرهبان السريان قد سكنوا وادي قاديشا وفي دير الفراديس بأرض بان. وكان عددهم في سنة ١٢٤٢ أربعين راهباً، واستحكمت حلقات الألفة بينهم وبين أهالي بشرّي. غير أن المقدم ثار عليهم وقتلهم كافة(٤٦). لكن بعد تولي المقدم سالم أخذ السريان يتوافدون، فمال اليهم سالم وانحاز الى معتقدهم وجعل يدافع عنهم. هكذا ثارت نيران الفتن في بشرّي وبلغت اخبارها الى الشام(٤٧). وما لبث المقدم نقولا أن حلّ مكان سالم وحارب اليعاقبة حتى هزمهم.

ج ـ تجدد الفتنة (أواخر القرن الرابع عشر):

حوالي ١٣٩٣ حصل صراع ضمن الموارنة فقام كهنتهم ورؤساؤهم بعزل بطريركهم داود المتأثر باليعاقبة، وأقاموا موضعه البطريرك يوحنا الجاجي، وقد اغتنم المسلمون فرصة اختلاف المسيحيين فسارعوا الى لبنان (جبّة بشرّي في ذلك الوقت) وقتلوا وسبوا وخطفوا ووضعوا الأيدي على كثير من القرى...(٤٨). ويبدو أن كبار علماء الموارنة في مجال الطقوس أقرّوا أيضاً بتأثير اليعاقبة وبخاصة ما ذكره العالم العلامة ميخائيل الرجّي(٤٩).

د ـ صراع في أواخر القرن الخامس عشر:

اذا كان صحيحاً أن فترة من الرخاء قد عرفتها منطقة الجبّة إبّان منتصف القرن الخامس عشر

تقريباً[٥٠]، واذا انطلقنا من قول الدويهي بأن في الحدث وحدها ستماية فدان، وهذا يعني على أقل تقدير وجود مائتي فلاح تقريباً، وان في إهدن ما يزيد على مئة واربعين ذكر ناضج[٥١] تقريباً، فإن الثلث الأخير من هذا القرن عرف أحداثاً دموية هامة وصراعاً مريراً وشاملاً أدّى إلى نزيف ديموغرافي واضح. فانطلاقاً من حوليات الدويهي عامي ١٤٨٧ و١٤٨٨ يمكننا استنتاج الوقائع التالية:

* اليعاقبة بنوا كنيسة في بشرّي على اسم القديس برصوما بدعم من المقدم عبد المنعم أيوب.
* القس نوح البقوفاني يعود يعقوبياً من القدس ويسكن أرض بان ويقوم بحركة تبشير تستقطب الكثير من الناس.
* مؤمنون ودعاة لليعاقبة ينشطون في مناطق أخرى داخل الجبّة وخارجها، وكثر السجس والانشقاق في البلاد[٥٢].
* تدفق بعض الاغراب الداعمين لهؤلاء اليعاقبة من حدود نابلس والحبشة.
* تحوّل في بعض الطقوس الأساسية كالتصليب بإصبع واحد.
* تزايد الشقاق بين أهل البلاد ونفي كل من يعترض على مذهب اليعاقبة من قبل المقدّم عبد المنعم، وتهديده للمعارضين بالإبادة والقتل والسلب[٥٣].
* قيام الاهدنيين بطرد الرهبان اليعاقبة من دير مار يعقوب في قريتهم وقد ذهبوا الى حدشيت.
* شيخ حدشيت الشدياق جرجس كان من حزب عبد المنعم ويعطف على اليعاقبة.
* استعان المقدم عبد المنعم بأهالي الضنية للقضاء على الاهدنيين، فتمكن الاهدنيون من الانتصار عليهم وطرد اليعاقبة وتشتيتهم.
* عرفت الجبّة في هذه المقتلة الكبيرة خسائر ديموغرافية واسعة، وهجرة غير قليلة الى خارج المنطقة باتجاه حردين، في منطقة البترون، أو باتجاه قبرس[٥٤].
* برغم حرم البطريرك، وبرغم تدخل إبن القلاعي لإقناع المقدم عبد المنعم، فقد استمر هذا الاخير على موقفه الداعم لليعاقبة حتى وفاته في العام التالي.
* يذكر الدويهي في كتابه رد التهم أن «أهل قرية بقوفا القاطنون في الحارة السفلى مالوا... الى اليعقوبية بسبب تعاليم ديوستورس بن ضو. فوثب عليهم اهالي إهدن ودكوا منازلهم مع دير الغوبة كرسي مفريانهم على الأرض»[٥٥].

وعلى صعيد آخر عكس إبن القلاعي في زجليته حال الرعب الذي حلّ بجبّة بشرّي من جراء الصراع الدموي بين اليعاقبة والموارنة. فقد جاء في زجليته:

من كان ضده (المقدم عبد المنعم) يتكلم يخرجه من الأوطان

ويأخذ ما فوقه وتحته	وينزع منه ابنه وبنته
وان جاوب رمى رقبته	في حكم ظالم دنياني

ثبت الخوف بالجبه	من النفي مع قطع الرقبة

ويضيف إبن القلاعي في مكان آخر من زجليته:

بشراي اصغي لاقوالي	لان الله عالم بحالي
وراجي اسمه العالي	ان يردك للايمان
وانت من شار عليك	حتى دخل يعقوب فيك
... غير جمالك وحواسك	وصرت سودا كالدخان[٥٦]
بشرّي خافي وارتعبي	بشرّي ابكي وانتحبي
ثمرة يعقوب حلت فيك	ويعقوب عاجز ليس يحميك
اطردي يعقوب الساكن فيك	واقتبلي البركات من هذا الآن
بشرّي بيوتك احترقت	بشرّي كتبك اختنقت
كانت محصنة تشتت	لانها مملوة طغيان

في إطار هذا الصراع المرير لم يقتصر تحرّك إبن القلاعي على اطلاق الزجليات، مع اهميتها في الوجدان الشعبي، بل ارسل ما يزيد على ٤٦٥ رسالة لمواجهة هجمة اليعاقبة. وفي احدى هذه الرسائل ذكر بأنه «اشتعل غضب الله في بلادنا واحرق الاخضر واليابس»[٥٧]. ويتهم اليعاقبة بانهم القوا السجس في البلاد واقلقوا القلوب الصافية.

في هذا السياق يمكن أن نفهم أن الضربات العسكرية والتهجير الجماعي الذي حصل في الجبّة حمل جزءاً من سكان الجبّة المؤيدين لليعاقبة لترك أرزاقهم وأوقافهم ومنازلهم والهجرة من تلك المنطقة. فالموارنة، على ما يبدو، اتخذوا من السريان خصوماً لهم في العقيدة «فتقووا عليهم... بل هاجموهم وغنموا اراضيهم وخيراتهم»[٥٨]. والهجرة الى خارج الجبّة لم تقتصر على السريان وانما طالت ايضاً الموارنة فقد ذكر اليانو في تقريره: «ولكثرة ما يفرض على الموارنة من ضرائب فقد غادر جمع غفير منهم ضياعهم ملتجئين الى بلاد الدروز»[٥٩].

بموازاة ما ورد في تاريخ الدويهي وفي زجلية ابن القلاعي، فان الرسائل المتبادلة بين البابوات والبطاركة الموارنة تدل على وجود اضطرابات وضنك. ففي رسالة موجهة مع القاصد الرسولي سوريانو من البابا ليو العاشر الى البطريرك شمعون الحدثي (اول آب ١٥١٥): «وانكم لم تزيغوا عن الايمان بالمسيح بسبب الضيم والضنك والاضطهاد الذي يلم بكم». ويشدد الدكتور صليبي بدوره على الهجرة المستمرة الى الساحل وعلى الصراع الدموي المفتوح بين الرعاة الموارنة والشيعة على سفح جبل المكمل[٦٠].

مهما يكن من أمر فإن كل هذه الأحداث السياسية والدينية والعسكرية والاقتصادية والاجتماعية، لا بل هذا الاقتتال الداخلي المفتوح بين اليعاقبة الذن استقطبوا جزءاً كبيراً من الطائفة المارونية وبعضاً من قيادتها الدينية اضافة الى القيادة الزمنية الاساسية لفترات غير قصيرة (بعض المقدمين في بشرّي)، كل ذلك ادّى الى نزيف ديموغرافي على صعيد القتلى وعلى صعيد التهجير

وكذلك على صعيد التدمير المتبادل في الدساكر والقرى المختلفة والبارزة في الجبّة (بشرّي، إهدن، حدشيت، الحدث، بقوفا الخ . . .).

ويبدو أن قبرص كانت مركز الهجرة الخارجية للموارنة. وقد ذكر الدويهي أن المعركة التي حمي وطيسها في عهد السلطان سليم الثاني الذي امر بفتح قبرص عام ١٥٧١ ادت الى مقتل اكثر من ثلاثين الف ماروني، منهم ١٥ الفاً قتلوا في المعركة نفسها و١٨ ألفا هلكوا فيما بعد(٦١).

٣ ـ الأمراض والأوبئة والكوارث الطبيعية:

هناك ترابط واضح يؤكده الباحثون بين الديموغرافيا التاريخية من جهة وعوامل المناخ والأمراض والأسعار. فالمناخ القاسي يؤثر على الزراعة وبالتالي ينعكس في ضآلة الانتاج الزراعي. وهذه الضآلة تنعكس على الاسعار وعلى الغذاء للسكان، وسوء التغذية يساهم في تعرض السكان للأوبئة والأمراض، ويرتبط بذلك ارتفاع نسبة الوفيات.

وتذكر حوليات البطريرك الدويهي أن المنطقة تعرضت على امتداد القرنين الرابع عشر والخامس عشر واوائل القرن السادس عشر الى موجات متتالية من الأمراض والاوبئة. ففي العام ١٣٤٨ عمّ الطاعون بلاد الشام «وخربت الضياع من سكانها وكانت قوة الطاعون من شدة الغلا»(٦٢). وفي العام ١٤٠٠ عرفت المنطقة أيضاً وباء وغلاء كبيراً بحيث «من زيادة الوباء وقفت اموات كثيرة بلا دفن كما يخبر الاسقف يعقوب»(٦٣)، وبعد ذلك بتسع سنوات عرفت المنطقة مرض الطاعون(٦٤). وفي العام ١٤٦٦ امحلت الزروع والحبوب جميعها . . . فهلك الناس من شدة الجوع . . . وكانت الناس تقتات العشب(٦٥). وفي العام ١٤٦٨ حصل وباء عظيم في «مملكة الشام» فهلك خلق كثير(٦٦)، وكذلك عام ١٤٩١ مات بسبب الوباء خلق عظيم(٦٧)، وفي عام ١٤٩٨ كان وباء(٦٨). وفي عام ١٥١١ حدث على الناس جدري ثقيل جداً ثم جرب وحكاك شديد كان يقلق الناس عن النوم والقعود، وحكم الموت على البقر في بلاد الشام فلم يسلم إلاّ القليل»(٦٩).

على صعيد آخر حصلت جملة عواصف ثلجية انزلت الاضرار بالمزروعات منها ما حصل في شباط ١٥٠٨ حيث وقع ثلج عظيم كان «بدؤه في سبعة أيام من شباط واستمرت ترمي ثلج قرب نصف شهر حتى انقطعت الطرقات في الساحل . . . وكان ارتفاعه بالسواحل نحو سبعة اشابر وأما في الجبال فلا قياساً له، واستمر الثلج على جبال السواحل الى اواخر نيسان حتى فني الحيوان»(٧٠). وفي ربيع ١٥١٨ حصلت عاصفة ثلجية في الجبّة قضت على الزروع، وتأذى من جرائها المواشي وبخاصة الماعز. وفي العام ١٥١٩ ـ أي عشية حصول الاحصاء العثماني ـ عرفت المنطقة زحفاً للجراد الذي أكل كل الفاكية والبزور وصار الغلاء العظيم»(٧١).

على قاعدة هذه العوامل المتفاعلة والمتشابكة، وبخاصة الضربات العسكرية المملوكية لمنطقة الجبّة، وحرب الاستنزاف الأهلية بين اليعاقبة والموارنة وضمن الموارنة انفسهم وربما بينهم وبين الطوائف الأخرى، والهجرة المرتبطة بذلك الى سائر المناطق اللبنانية جنوباً وشرقاً وربما شمالاً وغرباً وكذلك الهجرة الكثيفة والكبيرة جداً الى قبرص، إضافة الى عوامل كالأمراض والاوبئة والكوارث الطبيعية، مع لحظ مظاهر الاستغلال والقهر الموجهة ليس فقط من السلطة المركزية بل

من وكلائها الحكام المحليين، كل هذه العوامل، وربما عوامل اخرى، هي التي تساعدنا على فهم الضعف الديموغرافي لبشرّي(٧٢) خاصة ولسائر قصبات وقرى الجبّة بشكل عام.

باء ـ ملاحظات حول ديموغرافية ناحية الجبّة بين الاحصاءَين الأول والثاني:

لن نتوسع في تحليل العوامل التي يمكن أن تكون وراء المعطيات الديموغرافية التي عرضناها تبعاً لاحصاءي ١٥١٩ و١٥٧١ ولكن حسبنا أن نورد بعض الملاحظات الأساسية:

١ ـ استمرار الصراعات داخل حواضر هذه الناحية خاصة على مستوى الحكام المحليين، وعلى مستوى السلطة المركزية، وبين الأهالي. ففي منتصف القرن السادس عشر وقعت فتنة بين أولاد جلوان السمارنة وبين رهبان دير قزحيا وكذلك وقعت البغضاء بين المقدم رزق الله وبين أخيه عاشينا فقتلا جميعاً. وتوزع القشلق على البلدان فكان ما أصاب منه جبّة بشراي واحداً وعشرين الف سلطاني. ونهبت السائقة وجميع ما وجد في الأديرة(٧٣).

ومن مظاهر الاقتتال المحلي ما حصل في ايطو عام ١٥٣٧ حيث «كان مقتل كمال الدين إبن عبد الوهاب إبن عجرمة مقدم ايطو؛ وذلك لأن كانت الخصومة بينه وبين عبد المنعم حنا مقدم بشرّي في سبب حكم البلاد(٧٤).» وكذلك عام ١٥٤٠ حصلت فتنة بين اهالي عينتورين وأهالي بان(٧٥). ثم مات مقدم بشرّي عبد المنعم حنا غيلة عام ١٥٤٧(٧٦)، وكذلك استتبع ذلك صراعاً بين اهل بشري والحمادية. ويبدو أن القشلق الذي وسع اعماله التخريبية قبيل الإحصاء يساعدنا على فهم التراجع الديموغرافي في بعض القرى. على كل حال الضربة العسكرية حصلت بعد الإحصاء وطالت جملة قرى وأدّت الى تفريغها» وخلت فيها (١٥٧٢) ضياع كثيرة مثل سبعل وبنهران ومتريت والناووس واذنيت وكفرفو وراسكيفا ونيحا وسرعل وحيرونا وبرحليون ورشدبين وبقرقاشا». وطالت الضرائب الكثير من الأديار أيضاً. وفي هذا السياق يمكن أن نفهم رسالة البطريرك موسى العكاري الى البابا عام ١٥٤٢: «صحيح اننا امسينا لفقرنا مستعبدين ومظلومين من الاشرار الذين يحيطون بنا من كل ناحية بحراً وبراً. . .» ثم يضيف «لما نحن فيه من فقر وجور واضطراب . . .». وفي هذا السياق أيضاً يمكن أن نفهم جواب البابا اكليمنضوس السابع الى مقدم بشرّي ١٥٣١: «لم يخف علينا ما نابك من الكرب من ذويك فتألمنا معك وبالوقت عينه فرحنا لعلمنا أن الإنسان بهذه الوسائط يبلغ الى السماء وبها يكلل إيمان المؤمنين. واننا لنعتقد بما ينتابكم ولئن كنا في وسط المسيحيين فإننا نحتمل ضغطاً وضيقاً من ذوينا في هذه السنوات. فلمَ تتعجب إذا كنت تحتمل مثل هذا من الغرباء. لذلك يجب عليك ايها الإبن الحبيب أن تثبت إزاء الاضطهاد وأن تبقى رابط الجأش ذا إرادة قوية . . . سنة ١٥٣١»(٧٧).

٢ ـ حصول بعض المصاعب المناخية في هذه الفترة:

لا يمكن التقليل من عامل المناخ في التأثير على التحولات الديموغرافية خاصة في المناطق الجبلية كناحية بشري. وان عودة الى حوليات البطريرك الدويهي تبيّن بوضوح أن هذه المنطقة تعرّضت تارة للجفاف (شتاء ١٥٣٩ـ١٥٤٠)(٧٨)، وطوراً للثلج العظيم «الذي لم يرَ الشيوخ مثله». وكذلك عام ١٥٥٧ حصلت فيضانات، ورياح عاصفة وثلوج كثيفة أدّت الى «حرق توت القز والكرم» وسائر الفاكهة(٧٩).

٣ ـ حصول بعض الاوبئة والامراض:

يذكر تقرير وضعه اليانو أن غذاء الكهنة والمدنيين في الجبّة يتألف من البيض والألبان والاسماك، ولكن في الصوم الكبير لا يأكلون سمكاً ولا يشربون خمراً. وطول حياتهم لا يذوقون اللحم أبداً. وهؤلاء جميعاً يعملون أعمالاً مختلفة ويكدّون وأكثرهم يفلحون بساتينهم وكرومهم ويجمعون الزيتون وما أشبه ذلك. ويشير الى أن الرهبان يواظبون على الفقر في مآكلهم وملبسهم[٨٠].

برغم أن غذاء الجبليين الشماليين ليس مترفاً فإنه في نفس الآن ليس سيئاً جداً. ولكن يمكن تسجيل وجود نوع من التقشف خاصة في أيام الصوم الذي يفرض الامتناع عن «جميع المأكول والمشروب أجمع» ذلك أن «بالأكل صارت الخطية»[٨١]. ومن ضمن التوجيهات الدينية للمؤمنين ثمة حث أن «جاهدوا واصبروا واستعينوا بقلة الأكل والشرب»[٨٢]. كما هناك تحريض على عدم شرب الخمر للسكر[٨٣].

هذا التقشف في المأكل كان يؤثر على الوضعية الصحية لسكان ناحية بشرّي، وكان الاطفال يتعرضون بنوع خاص للوفاة المبكرة بسبب الملاريا. وهذه الظاهرة موجودة بشكل واسع في بلدان حوض المتوسط[٨٤]. بموازاة ذلك يمكن أن نلاحظ خطر وفاة الاطفال من احد مقررات المجمع الماروني الملتئم عام ١٥٨٠ حيث جاء:

«القانون السادس ـ يجب أن الأطفال بغير تعويق وفي كل الاوقات لما ليس يكونوا تحت خطر الموت يحملون الى الكنيسة ليتعمدون كما اعتادت بذلك الكنيسة الرومانية. لان الاطفال في هذا العمر هم تحت خطر الموت في امور كثيرة ولم توجد شفا لخلاصهم بغير هذا السر المقدس...»[٨٥].

٤ ـ الجراد والغلاء:

لقد عانى سكان ناحية بشرّي من الارتفاع غير الطبيعي في الاسعار وخاصة إبّان السنوات التي تتعلق ببحثنا (١٥١٩، ١٥٢٠، ١٥٢٤، ١٥٢٦، ١٥٤٠)[٨٦]. وطالما ترافق ذلك بوجود اسراب من الجراد. وكان ذلك عاملاً مساعداً في التأثير على الأهالي وخاصة لجهة تعرضهم للأمراض من جراء سوء التغذية.

برغم أهمية عوامل المناخ والمرض والغلاء، وبخاصة الاقتتال، في تفسير التباطؤ الواضح في النمو الديموغرافي بناحية بشرّي، فإن العامل الأساسي برأينا يبقى الهجرة الداخلية ـ الى سائر المناطق ـ أو الخارجية باتجاه قبرص. وهذه الهجرة كانت من ناحية الجبّة الى خارجها وكانت ايضاً هجرة باتجاهها. ومن حقنا أن نرجّح أن التزايد الذي عرفته بشرّي بين ١٥١٩ و١٥٧١ لم يكن ناجماً فقط عن تزايد في الولادات بالمقارنة مع الوفيات بل ربما نجم عن عودة بعض الذين هجروا منها في المرحلة السابقة (الزيادة كانت ٢٢ ,٨ بالألف). ومن المرجح، بالمقابل، أن إهدن عرفت هجرة أكثر من بشرّي باعتبار أن معدل الزيادة فيها هو قليل نسبياً (٤٦ ,٢ بالألف سنوياً). والملفت الضمور الذي عرفته الحدث (٤٢ ,٤– بالألف سنوياً). وهذا الأمر يحملنا على

التأكيد أن هذه القصبة الهامة ديموغرافياً قد تعرّضت لأحداث استثنائية. فإما انها تضررت أكثر من غيرها من اضطهادات القشلق، وإما أن هجرة جماعية قد حصلت فيها لبقايا اليعاقبة، وإما أن أوبئة فتّاكة قضت على نسبة عالية من اطفالها، أو أن هناك هجرة داخلية حصلت منها الى مناطق أكثر دفئاً وانتاجاً، أو أن كل هذه العوامل مجتمعة قد أثّرت على هذه القصبة.

أما بالنسبة لقنات وعبدين فإن التراجع الذي حصل فهو غير طبيعي أيضاً، وربما تنطبق التساؤلات التي طرحناها، بالنسبة للحدث، على هاتين القريتين بحدة أكثر. ذلك أن التراجع في قنات كان ١٨ ,٩– بالألف وفي عبدين كان ٧٨ ,٢١– بالألف سنوياً.

خامساً: ملاحظات أولية حول أسماء سكان أبرز قرى ناحية بشرّي:

لقد اهتمّ الباحثون في مجال الديموغرافيا التاريخية بمسألة لوائح الاسماء. وقد طرح الباحث الشهير لويس هنري Louis Henri جملة احتمالات من أجل استعمال اللوائح الأسمية[٨٧]. منها على سبيل المثال لا الحصر: التصنيف حسب الجنس، وفي الوثائق التي بين أيدينا لا وجود إلا لأسماء الذكور. والتصنيف حسب العمر وليس لدينا أسماء غير الناضجين (ما فوق سن الـ١٥ تقريباً). والتصنيف حسب الحالة الزوجية والوثائق التي بين ايدينا لا توضح من هم المتزوجون ومن هم العازبون من بين الأسماء المسجلة. ثم هناك التصنيف على أساس المهنة والإحصاء لا يذكر ـ مع استثناءات قليلة أو بالأحرى نادرة ـ مهنة أي من المسجلين.

ولكن حاولنا أن نتبع تصنيفاً آخر ينطلق من جملة اسئلة حول طبيعة الأسماء: هل هي أسماء تعود الى أنبياء التوراة أم أنها تعود الى العهد الجديد وتالياً ما مدى وجود أسماء قرآنية في القرى ذات الوجود الإسلامي؟

هل الأسماء بسيطة أم مركبة؟

هل هناك أسماء مهن؟ أم أسماء صفات، أم أسماء فاعل أو أماكن أو حيوان أو غير ذلك؟

في كل حال يجدر أن نطرح وقبل ان نعرض ما توصلنا اليه بعض الملاحظات الاولية:

١ ـ هناك بعض الأسماء التي استحال علينا فك رموزها فأحجمنا عن ذكرها وهي قليلة جداً.

٢ ـ هناك غياب للإسم الثاني في بعض الأسماء كأن يقال مثلاً (يحنا ولد او)، أي ولد صاحب الأسم الذي يسبقه. وبسبب عدم يقيننا من أن الاسم السابق هو أسم الأب أو اسم ابنه احجمنا أيضاً عن إيراده في العرض.

٣ ـ هناك بعض الأسماء التي تعود الى العهد القديم كإسم القديس مار الياس لم نجد حرجاً في أن نضعها مع أسماء قديسي العهد الجديد، وكذلك إسم يوسف.

٤ ـ لقد صنفنا اسم يمّين كإسم جهة.

لقد استطعنا الحصول على جميع أسماء الذكور في إهدن وبشرّي في الاحصاءين ١٥١٩ و١٥٧١. فماذا يمكننا أن نستنتج من خلال تصنيف هذه الأسماء؟ (راجع الجداول رقم ٦ و٧ و٨

و ٩) .

أ ـ بالنسبة لاهدن في إحصاء ١٥١٩:

تأتي الأسماء التالية حسب الأولوية: يوسف تردد ٣٩ مرّة، يعقوب ٣١، ابراهيم ٣٠، سمعان وجرجس ٢١، موسى ١٩. أما على صعيد مجموع الأسماء فهناك نسبة ٤٩٪ من الأسماء هي من العهد الجديد، ٢٩٪ من العهد القديم، ثم تأتي على التوالي: الصفة ٧٪، أشياء ٣٪، اسم فاعل ٣٪، مهنة ٥ , ١٪ رتب دينية وجهات ٩ , ٠٪، حيوان وأماكن ٣ , ٠٪ ومختلف ٥٪.

ب ـ بالنسبة لبشرّي في إحصاء ١٥١٩:

تأتي الأسماء التالية حسب الأولوية:

جبرائيل ٧ مرات، باخوس ٦، سركيس ٥، يحنا ٥، يعقوب ٣.

أما على صعيد مجموع الأسماء فنستنتج ما يأتي:

عهد جديد ٣٥٪، عهد قديم ١٩٪، صفة ١٣٪، اسم فاعل ٦٪، اسماء مركبة ٥٪، واسماء أشياء ٥٪، واسم مهنة ٤٪، ورتب دينية ٤٪، أسماء أماكن ٧ , ١٪، أسماء حيوان ٩ , ٠٪، وأسماء أيام ٩ , ٠٪، ومختلف ٤٪.

ج ـ أسماء أهالي إهدن تبعاً لاحصاء ١٥٧١:

أبرزها حسب التدرج: يمين ٤١ مرة، يوسف ٢٨، جرجس ٢٢ مرة، يعقوب وسمعان ٢١ مرة، بطرس ٢٠ مرة.

أما على مستوى المجموع العام للأسماء فنلاحظ وجود: ٥٣٪ من الأسماء تعود للعهد الجديد، ٢٠٪ عهد قديم، ١٢٪ جهات (تردد اسم يمين ٤١ مرّة)، ٥٪ صفة، ٣٪ اسم فاعل، ٢ , ١٪ اسم أشياء، ٩ , ٠٪ اسم مهنة، ٩ , ٠٪ اسم مركب، ٣ , ٠٪ اسم حيوان، ٣ , ٠٪ رتب دينية، ٣ , ٢٪ مختلف.

د ـ أسماء أهالي بشرّي تبعاً لاحصاء ١٥٧١:

أبرزها يوسف ٢٣ مرة، موسى ٢١، جبرائيل ١٥، يحنا ٩، يمين٨.

أما بالنسبة للتصنيف العام للأسماء: ٥ , ٤٤٪ عهد جديد، ٢٠٪ عهد قديم، ٩٪ صفة، ٤٪ مهنة، ٤٪ مركب، أشياء ٣٪، اسم فاعل ٣٪، ١٪ رتب دينية، ٥ , ٠٪ أيام، ٥ , ٠٪ حيوان و٥ , ١٠٪ مختلف.

إذا قمنا بمقارنة نسب الأسماء بين إهدن وبشرّي ما هي الملاحظات التي نستطيع ايرادها؟

١ ـ هناك تزايد في أسماء العهد الجديد في القصبتين مع لحظ نسبة أعلى في إهدن.

٢ ـ هناك تزايد في أسماء العهد القديم في بشرّي بينما هناك تراجع في إهدن.

٣ ـ هناك ثبات في نسبة أسماء المهن في بشرّي بينما حصل تراجع في إهدن.

٤ ـ حصل تراجع في أسماء الصفة في كل من بشرّي واهدن.

٥ ـ الأسماء المركبة في بشرّي أعلى منها في إهدن.

٦ ـ أسماء الأشياء تراجعت في الحاضرتين.

٧ ـ أسماء الفاعل تراجعت في بشرّي وتزايدت في إهدن.

٨ ـ أسماء الرتب الدينية تراجعت في القصبتين.

٩ ـ أسماء الأماكن تزايدت في إهدن واختفت في بشرّي.

١٠ ـ اسم يوم الجمعة موجود في بشرّي بينما لا ذكر لأسماء أيام في إهدن.

١١ ـ لم يرد اسم مارون في بشرّي بينما ورد مرّة واحدة في إهدن.

١٢ ـ وردت صفة قس في بشرّي قبل اربعة اسماء وصفة خوري قبل اسم واحد، بينما لم ترد صفة قس في إهدن إلا قبل اسم واحد.

٣ ـ حول أسماء ذكور بعض القرى تبعاً للإحصاءين:

لقد تمكّنا من تصوير أسماء ذكور ٣ قرى في الاحصاءين، وهي عين تورين وبان وبصلوقيت، فما هي أبرز النقاط التي يمكن استنتاجها؟

أ ـ في عين تورين تزايدت اسماء العهد الجديد في الإحصاء الأول من ٢١ اسماً الى ٣٢ أي انها زادت ٥٢٪ بينما تزايدت أسماء العهد القديم من ١٠ أسماء الى ١٣، أي بنسبة ٣٠٪. وأسماء الصفة زادت ٥٠٪ اي من ٣ الى ٦.

أبرز الأسماء المتواترة: ابراهيم ٦ مرات ثم ٧ مرات، يوسف ويوحنا ٤ مرات وأيوب ويعقوب وبطروس وسركيس مرتين في إحصاء ١٥١٩، وجرجس ٧ مرات، ويمين ويوحنا ويوسف ٤ مرات في الإحصاء الثاني.

ب ـ بالنسبة لقرية بان تناقصت اسماء العهد الجديد من ٣٣ اسماً الى ١٩ اسماً اي بنسبة ٤٢٪-، بينما تناقصت نسبة اسماء العهد القديم ٢٩٪- أي من ١٤ الى ١٠ أسماء. وأسماء الصفة تراجعت من ٤ الى ٢ أي بنسبة ٥٠٪ أيضاً.

أبرز الأسماء جرجس ٩، يحنا ٧، موسى ٦، يعقوب ٥، سركيس ٣ في الإحصاء الأول. أما في الإحصاء الثاني: سركيس ٨، جرجس ٦، يوسف ٦، موسى ٥، يمين٣.

ج ـ في بصلوقيت تزايدت أسماء العهد الجديد من ٥ الى ١٢ اسماً بنسبة ١٤٠٪، واسماء العهد القديم تزايدت من ١ الى ٨ أي بنسبة ٧٠٠٪ واسماء الصفة تزايدت من ٤ الى ٥ أي بنسبة ٢٥٪.

في الإحصاء الأول ورد اسما فرح وفارس مرتين وموسي ويوحنا وباخوس مرة واحدة. أما في الإحصاء الثاني فكان تراتب الاسماء على النحو التالي: موسى ٦، جريس ٣، يمين ٣، بطرس ٢، يوسف ٢.

٤ ـ حول أسماء ذكور بعض القرى تبعاً للإحصاء الأول:

لقد تمكّنا من تصوير أسماء قرى حصرون وسبعل وكفرفو وحورونا وراس كيفا وافقة انطلاقاً

من إحصاء ١٥١٩. فما هي أبرز الملاحظات؟

١ - في حصرون ٢٦ اسماً من العهد الجديد، ٢٤ من العهد القديم، ٢١ اسم صفة. ويعتبر هذا الرقم لعدد اسماء الصفة الأعلى بين كل القرى المدروسة في الناحية.

أبرز الأسماء المتواترة: باخوس ٨ مرات، يحنا ٧، ابراهيم ٧، يعقوب ٧، موسى ٦.

٢ - في سبعل هناك ١٨ عهد جديد، ١٣ عهد قديم، ٥ صفة.

أكثر الأسماء تردداً: ابراهيم ٤ مرات، جرجس ٤، يحنا ٤، موسى ويوسف ٣ لكل منهما.

٣ - كفرفو: فيها النسبة الأعلى من أسماء العهد القديم ٧، و٤ من العهد الجديد، ١ صفة.

من أبرز الأسماء: موسى ٤، يوسف ٣، هلال وابراهيم ٢، يوشع ١.

٤ - حورونا: فيها أكثرية شبه كاملة لأسماء من العهد الجديد (١١ أسماً)، وهناك اسم واحد من العهد القديم.

من أهم الأسماء التي وردت: سركيس ٣ مرات، الياس ٣، جبرائيل ٢، سمعان ١ ويوسف ١.

٥ - راسكيفا: هذه قرية مختلطة كما ذكرنا، فبالنسبة لأسماء المسيحيين هناك ١٣ من العهد الجديد و١٠ من العهد القديم و٣ صفات و٣ مركبة. وأهم الأسماء الواردة: موسى ٣ مرات، ابراهيم وسليمان وبطروس ورزق الله ٣ مرات كل اسم. أما بالنسبة لأسماء المسلمين فقد تردد اسم احد الخلفاء الراشدين ١١ مرة، وأسماء العهد القديم ٥ مرات، واسم النبي محمد ٤ مرات، واسماء صفة ٤ مرات.

أكثر الأسماء تردداً: احمد ومحمد ٤ مرات، يوسف ٣، عثمان وعلي وعمر مرة واحدة.

٦ - افقة: إن هذه القرية الإسلامية يبدو أن أهاليها، على الأرجح، هم من الشيعة. ونسب توزّع الأسماء هي على الشكل التالي: النبي محمد ١٦ مرة، الخلفاء الراشدون ٧ مرات، مركبة ٤، عهد قديم ٣، اسم فاعل وصفة ٢.

وأكثر الأسماء تردداً: محمد ١٠ مرات، احمد ٦، علي ٣، حاجي عمر ٢، عبد العزيز ٢.

٥ - حول أسماء ذكور بعض القرى تبعاً للإحصاء الثاني:

لدينا أسماء أهالي قريتي حدث وطورزا. فإذا كانت طورزا قليلة السكان (ذكرين) حيث ورد ٣ أسماء من العهد الجديد (يوسف وجرجس والياس)، واسم خليفة مرة واحدة. فإن الحدث هي من القرى الأساسية. وقد ورد فيها ٦٠ مرة أسماء من العهد الجديد، و١٨ مرة أسماء من العهد القديم، و١٣ اسم صفة، واسمي حيوان وأشياء واسم مركّب. أما أبرز الأسماء التي ترددت فهي على التوالي: يوسف ٩ مرات، بطرس ٨، جرجس ويحنا ٧، توما وسركيس ٥.

٦ - الأسماء ومسألة السلطة المحلية في إهدن وبشرّي: ملاحظات واسئلة:

لقد كتب الكثير حول دور المقدمين في بشرّي والجبّة عامة ابتداء من البطريرك الدويهي ومروراً

بالعينطوريني والشدياق وصولاً الى الدبس والخوري فرنسيس رحمة ومؤخراً الدكتور كمال الصليبي وغيرهم:

ومن حقنا أن نقارن هذه الطروحات التقليدية بما وصل لدينا من معرفة بالأسماء من خلال الطابو دفتري.

١ - في إهدن هناك تسمية في الطابو دفتري لاسم ريّس. ومن المرجّح أو شبه المؤكد أن هذا الشخص كان بمثابة زعيم لهذه الحاضرة، أو بالأحرى حلقة الوصل بين السلطة المركزية العثمانية وهذه القصبة خاصة في مجال جمع الضرائب.

في الإحصاء الأول يورد اسم ريّس جريس ولد يحنا، وهو الاسم الأول في هذا الإحصاء.

وفي الإحصاء الثاني نلاحظ وجود ثلاثة أسماء، باعتبار أن إهدن كانت مقسمة الى حارتين الحارة الفوقا والحارة التحتا.

فالريّس يمين يرد مع الحارة التحتانية، والريّسان يوسف جريس وعبيد مهنا يتمّ ورودهما مع سكان الحارة الفوقانية.

وإذا ابدينا المزيد من التدقيق يمكننا أن نستنتج أن الريّس يوسف جرجس، في الإحصاء الثاني، هو إبن الريّس جرجس ولد يحنا في الإحصاء الأول. وهذا الأمر أيضاً يحملنا على تسجيل ظاهرة معروفة وهي استمرار التوارث في الزعامة المدنية في البيت الواحد. كما أن التدقيق في ورود الاسماء يحملنا على الملاحظة أن اسم الريّس جريس ولد يحنا كان الاسم الأول الوارد في إحصاء إهدن عام ١٥١٩، بينما اسم الريّس يمّين كان الاسم الاول من أسماء «محلة تحتاني» في إهدن، في إحصاء ١٥٧١، بينما اسم ريّس يوسف جرجس كان الأول في إحصاء «محلة فوقاني» إهدن، وبعد ورود واحد وخمسين اسماً نصل الى ريّس يمين يمين الذي يرد بعده ٣٧ اسماً.

٢ - تؤكد المراجع التقليدية على وجود المقدمين التالية اسماؤهم في بشرّي في الفترة موضوع دراستنا:

عام ١٥١٩ المقدم يوحنا بن الياس الذي تلقّب باسم عبد المنعم الثالث[٨٨].

عام ١٥٣٧ رزق الله الثاني إبن حسام الدين الثاني إبن عز الدين (تولّى الحكم)[٨٩].

والدويهي يذكر أن رزق الله هذا كان حاضراً في تقديس الميرون.

ورزق الله له شقيق يدعى عاشينا قتله أخوه.

عام ١٥٧٣ هناك ذكر للمقدم داغر بن حسام الدين بن عز الدين شقيق رزق الله.

وفي نفس العام ثمة ذكر للمقدم عساف بن موسى أخ حسام الدين.

وعام ١٥٧٤ هناك ذكر للمقدم مقلّد بن الياس بن جمال الدين.

وفي سياق العرض هناك ذكر لموسى وداود شلندي[٩٠]. إذا فتّشنا عن هذه الأسماء التي ترد

في المراجع التاريخية المختلفة على أنها كانت ذات ثقل ووجاهة سياسية ليس فقط في بشرّي وإنما في الجبّة كلها. فماذا نلاحظ؟

أ - في الإحصاء الأول ورد اسم حسام الدين عز الدين، فهل أن رزق الله الثاني إبن حسام الدين الثاني إبن عز الدين المنوّه عنه أعلاه هو والده؟

ب - لا وجود في الإحصاء لاسم يوحنا بن الياس ولا لاسم عبد المنعم، بل هناك وجود لأسماء: يوحنا ولد دبوس، يحنا ولد عواد، يحنا ولد يعقوب، فهل أن اسم هذا المقدم مختلق أم أنه حصل تغيير في تسميته أم انه لم يكن ذكراً ناضجاً إبّان اجراء الإحصاء؟

ج - هناك اصرار على الرواية التي تؤكد أن المقدم رزق الله قتل شقيقه عاشينا في حدود العام ١٥٣٧. ولا ذكر أيضاً في الإحصاء لهذا الإسم.

د - لقد ذكر حسام الدين عز الدين كأول اسم في إحصاء بشرّي عام ١٥١٩. فهل يمكننا الاستنتاج، قياساً بما لاحظنا في إحصاء إهدن، أن حسام الدين هو زعيم بشرّي؟ ولماذا لم يطلق عليه أي لقب كريّس أو مقدّم مثلاً؟

هـ - اذا كانت النظريات التقليدية حول المقدمين العناحلة صحيحة، فهذا يعني، في بشرّي، وجود الأسماء التالية في إحصاء ١٥٧١: داغر بن حسام الدين بن عز الدين، عساف بن موسى شقيقه، مقلد بن الياس بن جمال الدين، موسى وداود شلندي. لكن بعد التدقيق والمقارنة نتوصل الى خيط رفيع هو وجود اسم حسام ولد عز الدين وهو قريب من الاسم المطروح سابقاً، وكذلك نلاحظ وجود اسم عساف موسى.

و - إن الطابو دفتري يوضح أن حسام ولد عز الدين وعساف موسى هما مسلمان. وهذا الأمر يطرح علينا جملة اسئلة:

- هل أن بعض المقدمين كانوا مسلمين(٩١)؟ وتالياً هل أن الوجود الإسلامي في بشرّي هو وجود أصيل أم هو مزروع من قبل السلطة المملوكية - وتالياً العثمانية - لأهداف أمنية؟

- أم انهم كانوا مسيحيين وتظاهروا بالإسلام؟

- واستطراداً هل أن المقدمين العناحلة وحدهم ينطبق عليهم هذا التساؤل، أم أن المسألة مطروحةعلى عدد كبير من المقدمين الآخرين؟ إن المزيد من الأبحاث حول هذا الموضوع والاستناد الى مزيد من الوثائق وبخاصة التحقق من صحة الرسائل التي يقال أنها بعثت من البابوات الى بعض المقدمين، كل ذلك يساعدنا في استكشاف المزيد من الحقائق حول هذا الأمر الهام.

لقد طرحنا في هذه الدراسة الموجزة بعض المعطيات الديموغرافية عن ناحية بشراي مستندين الى وثائق جديدة في الباشبكنليك ارشيفي في اسطنبول. وقد حاولنا أن ننقل البحث التاريخي من الاهتمام بالأحداث السياسية والدينية فقط الى الاهتمام بالشعب الذي هو صانع التاريخ. ولم يقتصر عملنا على عرض الجداول والارقام بل حاولنا قدر استطاعتنا أن نحللها في ضوء المعطيات المختلفة الاقتصادية والمناخية والاجتماعية والسياسية والدينية وغيرها. ونحن في عملنا هذا نعرف

حدود اطروحاتنا، وبالتالي فنحن لا نزعم اننا اقفلنا النقاش في الموضوع بقدر ما نزعم اننا حاولنا أن نفتح الآفاق الجديدة حوله. ومهما يكن من أمر ألم نقل أن الديموغرافيا التاريخية هي علم صعب، من حيث أنها تحتوي على كل تعقيدات علم الديموغرافيا المعاصر، وتحتوي من جهة أخرى على كل الثغرات والشكوك التي تفرضها الدقة في علم التاريخ؟

الجدول رقم ١

الضرائب التي تدفعها ناحية بشرّي سنتي ١٥١٩ و ١٥٧١

العـام	الضرائب العادية	الجزية على النصارى	المجموع
١٥١٩	١٧٤٤٠٧	٢٦٠٠	١٧٧٠٠٧
١٥٧١	١٩١٦٨٦	٩٩٣٥٩	٢٩١٠٤٥
نسبة الزيادة المئوية	٩،٩٪		

الجدول رقم ٢

الطواحين ومعاصر الزيت والعنب ودواليب الحرير في ناحية بشرّي ١٥٧١

الطواحين	٢٢ طاحون صيفي وشتوي
معاصر العنب	٥٢ معصرة
معاصر الزيت	٦ معاصر
دواليب الحرير	٢٦ دولاب حرير

جدول رقم ٣

جدول بالعدد العام للسكان في ناحية بشرّي

تبعاً لإحصاء ١٥١٩ وإحصاء ١٥٧١

	إحصاء ١٥١٩	إحصاء ١٥٧١	نسبة التغير بالمئة	نسبة التغير بالألف سنوياً
النصارى	٨٧٠ ذكـــراً أي ٥٢٢٠ نسمة	١١١٠ ذكـور أي ٦٦٦٠ نسمة	+ ٢٧،٥٪	٤،٥٩ بالألف
المسلمون	٤٠ ذكراً أي ٢٤٠ نسمة	٢٤ ذكراً أي ١٤٤ نسمة	− ٦٠ ٪	− ٩،٧٧ بالألف
مجمـوع الذكـور الناضجين	٩١٠ ذكور	١١٣٤ ذكور		٤،٢٤ بالألف
مجموع النفوس	٥٤٦٠ نسمة	٦٨٠٤ نسمة		

جدول رقم ٤ (١)

	إحصـاء ١٥١٩					إحصـاء ~~١٥١٧~~ ١٥٧١					
	الذكور الناضجون	المتزوجون	العازبون	مسيحيون	مسلمون	الذكور الناضجون	المتزوجون	العازبون	مسيحيون	مسلمون	الزيادة السنوية بالألف
١ إهدن	١٧٦	١٥٠	٢٦	١٧٦	–	٢٠٠	٢٠٠	–	٢٠٠	–	٢،٤٦
٢ إهدن الجبة (الجبل)	٣٩	٣٣	٦/٥ *	٣٩	–	٤٣	٤٣	–	٤٣	–	١،٨
٣ إبريسات	١			١	–	مزرعة	–	–	–	–	–
٤ إدنيت	١٣	١٢	١	١٣	–	إدنيت	٢٢	–	–	٢٢	١٠،١٦
٥ أفقة	١٧	١٦	١	–	١٧						
٦ إقنات	٤٢	٣٥	٧	٤٢	–	٢٦	٢٦	–	٢٦	–	−٩،١٨
٧ أيطو	٢٨	٢٤	٤/٢	٢٨	–	٤٦	٤٠	٦	٤٦		٩،٥٩
٨ بان	٢٦	٢٥	١	٢٦	–	٣٤	٣٤	–	٣٤	–	٥،١٧
٩ بقرقاشا	١٨	١٥	٣/٢	١٨	–	٣٥	٣٥	–	٣٥	–	١٢،٨٧
١٠ برحليون	٧	٧	–	٧	–	٣٠/٢٩	٣٠	–	٣٠	–	٢٨،٣٨
١١ بزعون	٧	**_	–	٧	–	١١	١١	–	١١	–	٨،٧٢
١٢ بصلوقيت	٧	**_	–	٧	–	١٨	١٨	–	١٨	–	١٨،٣
١٣ بلوزا	٦	٤	٢	٦	–	١٢	١٢	–	١٢	–	١٣،٤

* **ملاحظة**: عندما نضع رقمين متواليين فهذا يعني تصويباً للرقم الموجود في الطابو دفتري.

** لا ذكر لعدد المتزوجين والعازبين في الطابو.

جدول رقم ٤ (٢)

	إحصاء ١٥١٩					إحصاء ~~١٥١٧~~ ١٥٧١					
	الذكور الناضجون	المتزوجون	العازبون	مسيحيون	مسلمون	الذكور الناضجون	المتزوجون	العازبون	مسيحيون	مسلمون	الزيادة السنوية بالألف
١٤ بنشعي	٨	٨	–	٨	–	١٢	١٢	–	١٢	–	٧،٨٢
١٥ بنهران	٢٠/١٠	١٦	٤	٢٠	–	١٧	١٧	–	١٧	–	-٣،١٢
١٦ بيلا	٣	٣	–	٣	–	٢	٢	–	٢	–	-٧،٧٦
١٧ بقاع كفرا						١٢	١٢	–	١٢	–	
١٨ تولا	١٩	١٩	–	١٤	٥	٢١	٢١	–	١٣	٨	١،٩٢
١٩ حدث	٦٨	٦٠	٨	٦٨	–	٥٤	٥٤	–	٥٤	–	-٤،٤٢
٢٠ حدشيت	٧٠	٦٥	٥	٧٠	–	٨٤/٨٢	٨٤	–	٨٤	–	٣،٥١
٢١ حصرون	٤٨	٤٠	٨	٤٨	–	٨٥	٨٥	–	٨٥	–	١١
٢٢ حورونا	٦	٤	٢	٦	–	٨	٨	–	٨	–	٥،٥٤
٢٣ دير قنوبين	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–
٢٤ راسكيفا	٢٧	٢٣	٤	١٦	١١	٢٨	٢٨	–	٢٠	٨	٦،٩٩
٢٥ راش دبين	٣	٣	–	٣	–	٤	٤	–	٤	–	٥،٥٤
٢٦ سبعل	٢٣	١٨	٥	٢٣	–	٣٢	٣١	١	٣٢	–	٦،٣٧
٢٧ سرعل	٨	٨	–	٨	–	١٥	١٥	–	١٥	–	١٢،١٦

جدول رقم ٤ (٣)

	إحصاء ١٥١٩					إحصاء ~~١٥١٧~~ ١٥٧١					
	الذكور الناضجون	المتزوجون	العازبون	مسيحيون	مسلمون	الذكور الناضجون	المتزوجون	العازبون	مسيحيون	مسلمون	الزيادة السنوية بالألف
٢٨ طرزا	٣	٢	١	٣	–	٢	٢	–	٢	–	-٧،٧٦
٢٩ عبدين	٢٢	١٩	٣/٢	٢٢	–	٧	٧	–	٧	–	-٢١،٧٨
٣٠ عين تورين	١٨	١٥	٣	١٨	–	٣٠	٣٠	–	٣٠	–	٩،٨٧
٣١ غرزتا	٤	٤	–	–	٤	٥	٥	–	٥	–	٤،٣٠
٣٢ كرم سدي	٣٢	٢٩	٣	٣٢	–	٤٧	٤٧	–	٤٧	–	٧،٤
٣٣ كفرصارون	٨	٧	١	٨	–	١٨	١٨	–	١٨	–	١٥،٧١
٣٤ كفرصغاب	١٤	١٤	–	١٤	–	١٢	١٢	–	١٢	–	-٢،٩٦
٣٥ كفرفو	٩	٩	–	٩	–	١٢	١٢	–	١٢	–	٥،٥٤
٣٦ متريت	١٥	١٠	٥	١٥	–	٢٢	٢٢	–	٢٢	–	٧،٣٩
٣٧ موسى	٩	٧	٢	٩	–	١٢	١٢	–	١٢	–	٥،٥٤
٣٨ نفس بشراي	٦٤	٥٥	٩	٦١	٣ ؟	٩٨	٩٨	–	٩٠	٨	٨،٢٢
٣٩ نيحا	١٢	١٠	٢	١٢	–	١٨	١٨	–	١٨	–	٧،٨٢
٤٠ مزرعة التفاح	٢	٢	–	٢	–	–	–	–	–	–	–

الجدول رقم ٥

جدول مقارن بالزيادات السنوية بالألف لقرى ناحية بشرّي بين الاحصاءَين ١٥١٩ و ١٥٧١

فوق ١٥	١٠-١٥	٨-١٠	٦-٨	٤-٦	٢-٤	٠-٢	تحت صفر -٥	تحت ٥ وما دون
برحليون ٢٨،٣٨	بلوزا ١٣،٠٤	عين تورين ٩،٨٧	نيحا ٧،٨٢	موسى ٥،٥٤	حدشيت ٣،٥١	تولا ١،٩٢	كفرصغاب -٢،٩٦	بيلا -٧،٧٦
بصلوقيت ١٨،٠٣	بقرقاشا ١٢،٨٧	أيطو ٩،٥٩	بنشعي ٧،٨٢	حورونا ٥،٥٤	إهدن ٢،٤٦	إهدن ١،٨	بنهران -٣،١٢	طرزا -٧،٧٦
كفرصارون ١٥،٧١	سرعل ١٢،١٦	بزعون ٨،٧٢	كرمسدي ٧،٠٤	راشدبين ٥،٥٤			حدث -٤،٤٢	إقنات -٩،١٨
	حصرون ١١	بشري ٨،٢٢	متريت ٧،٣٩	بان ٥،١٧				عبدين -٢١،٧٨
	إدنيت ١٠،١٦		راسكيفا ٦،٩٩	غرزتا ٤،٣٠				
			سبعل ٦،٣٧					
			كفرفو ٥،٥٤					

جدول رقم ٦

نسبة العازبين والمتزوجين في ناحية بشرّي ١٥١٩

اسم القرية	نسبة العازبين	نسبة المتزوجين	اسم القرية	نسبة العازبين	نسبة المتزوجين
إهدن	٪١٥	٪٨٥	حصرون	٪١٦،٦٧	٪٨٣
اجبع الجبل	٪١٥،٣٨	٪٨٤	حورونا	٪٣٣،٣٣	٪٦٦
ابريسات	–	–	راسكيفا	٪١٤،٨١	٪٨٥
أدنيت	٪٧،٦٩	٪٩٢	راش دبين	٪٠	٪١٠٠
افقه	٪٥،٨٨	٪٩٤	سبعل	٪٢١،٧٤	٪٧٨
اقنات	٪١٦،٦٧	٪٨٣	سرعل	٪٠	٪١٠٠
ايطو	٪١٤،٢٩	٪٨٥	طرزا	٪٣٣،٣٣	٪٦٦
بان	٪٤	٪٩٦	عبدين	٪١٣،٦٤	٪٨٦
بقرقاشا	٪١٦،٦٧	٪٨٣	عين تورين	٪١٦،٦٧	٪٨٣
برحليون	٪٠	٪١٠٠	غرزتا	٪٠	٪١٠٠
بزعون	–	–	كرم سدى	٪٩،٣٨	٪٩٠
بصلوقيت	–	--	كفرصارون	٪١٢،٥٠	٪٨٧
بلوزا	٪٣٣،٣٣	٪٦٦	كفرصغاب	٪٠	٪١٠٠
بنشعي	٪٠	٪١٠٠	كفرفو	٪٠	٪١٠٠
بنهران	٪٢٠	٪٨٠	متريت	٪٣٣،٣٣	٪٦٦
بيلا	٪٠	٪١٠٠	موسى	٪٢٢،٢٢	٪٧٧
بقاع كفرا	–	–	نفس بشراي	٪١٤،٠٦	٪٨٥
تولا	–	٪١٠٠	نيحا	٪١٦،٦٧	٪٨٣
حدث	٪١١،٧٦	٪٨٨	مزرعة التفاح	٪٠	٪١٠٠
حدشيت	٪٧،١٤	٪٩٢			

الملحق رقم ٦

توزّع الأسماء في إهدن وبشرّي

	نسبة اهدين		نسبة بشرّي	
	إحصاء ١٥١٩	إحصاء ١٥٧١	إحصاء ١٥١٩	إحصاء ١٥٧١
		العدد ٣٤٦		
عهد قديم	٪٢٩	٪٢٠	٪١٩	٪٢٠،٥
عهد جديد	٪٤٩	٪٥٣	٪٣٥	٪٤٤،٥
صفة	٪٧	٪٥	٪١٣	٪٩
مركبة	٪٠،٩	٪٠،٩	٪٥	٪٤
أشياء	٪٣	٪١،٢	٪٥	٪٣
جهات	٪٠،٩	٪١٢	—	—
اسم فاعل	٪٢،٤	٪٣	٪٦	٪٣
مهنة	٪١،٥	٪٠،٩	٪٤	٪٤
حيوان	٪٠،٣	٪٠،٣	٪٠،٩	٪٠،٥
اماكن	٪٠،٣	٪٠،٩	٪١،٧	—
مختلف	٪٥	٪٢،٣	٪٤	٪١٠،٥
رتب دينية	٪٠،٩	٪٠،٣	٪٤	٪١
			أيام ٠،٩	أيام ٠،٥٪

الملحق رقم ٧

توزع أسماء بعض قرى ناحية بشري

اسم القرية	الاحصاء	عهد قديم	عهد جديد	صفة	مركبة	اشياء	جهات	فاعل	حيوان	مختلف	خلفاء راشدون	النبي محمد	يوم	رتبة دينية
عين تورين	١٥١٩	١٠	٢١	٣	١	١								
	١٥٧١	١٣ ٪٣٠	٣٢ ٪٥	٦ ٪٦	٢ ٪٥		٤							
بـان	١٥١٩	١٤	٣٣	٤	١									
	١٥٧١	١٠ -٪٢٩	١٩ -٪٤٢	٢ -٪٩٨			٣							
حصرون	١٥١٩	٢٤	٢٦	٢١		٥			١	١١				١
سبعل	١٥١٩	١٣	١٨	٥				٣	١	٣				
كفرفو	١٥١٩	٧	٤	١	١	٢				٢				
حورونا	١٥١٩	١	١١											
بصلوقيت	١٥١٩	١	٥	٤	١	١							١	
	١٥٧١	٨ ٪٧٠٠	١٢ ٪١٤٠	٥ ٪٢٥	١ صفر		٣	١						
طورزا	١٥٧١		٣	١										
حدث	١٥٧١	١٨	٦٠	١٣	١	٢			٢					
راس كيفا	نصارى ١٥١٩	١٠	١٣	٣	٣	١	١	١						
	اسلام ١٥١٩	٥		٤	٢	٢		٢			١١	٤		
أفقه	اسلام ١٥١٩	٣		٢	٤	١		٢			٧	١٦		

الملحق رقم ٨

نسبة الأسماء في قرى عين تورين – بان – حصرون – سبعل – كفرفو – حورونا
بصلوقيت – طورزا – حدث – راسكيفا – اقفه

	عهد قديم	عهد جديد	صفة	مركّبة	أشياء	جهات	فاعل	حيوان	مختلف	خلفاء راشدون	النبي محمد	يوم	رتب دينية
مجموع الاحصاء الأول ١٥١٩	٨٨	١٣١	٤٧	١٣	١٣	١	٨	٢	١٦	١٨	٣٠	١	١
مجموع الأحصاء الثاني ١٥٧١	٤٩	١٢٦	٢٧	٤	٢	١٠	٢	٢	-	-	-	-	-

الملحق رقم ٩

نسبة التغير في الأسماء (بشري وإهدن) بين الاحصاءين ١٥١٩ و ١٥٧١

	عهد قديم	عهد جديد	مهنة	مركّبة	أشياء	جهات	اسم فاعل	مهنة	حيوان	اماكن	مختلف	أيام	رتب دينية
بشري	٨٦٪	١١٧٪	١٣٪	٣٣٪	-	-	-١٤٪	٦٠٪	-	-	٣٢٠٪	-	-٦٠٪
إهدن	-٢٦٪	١١٪	-٢٨٪	-	-٦٠٪	١٢،٦٧٪	٣٧،٥٪	-٤٠٪	-	٢٠٠٪	-٥٠٪	-	-

(١) L'histoire et ses méthodes, Enc. de la Pléiade, Ed. Gallimard, 1961, p. 72.

(٢) المرجع السابق، ص ٧٣.

(٣) Fernand Braudel, La méditerranée et le monde méditerranéen, T1, Armand Colin, Paris, 1982, p. 31.

(٤) المرجع السابق، ص ٣٤.

(٥) لقد تفضل الزميل الدكتور معين حداد باعطائي هذا الرقم بعد أن قام بالأبحاث العلمية اللازمة على آلة الـ Planimètre.

(٦) Géographie Universelle, Larousse, T.2, Paris, 1959, p. 83.

(٧) راجع:
Lucien Febvre, La terre et l'évolution humaine, Albin Michel, Paris, 1970, p. 218.

(٨) راجع مقال خليل ساحلي اوغلو في:
Studies on Turkish-Arab relations, Istanbul, 1986, p. 248.

(٩) هذا الدفتر طوله ٤٧ سنتم وعرضه ١٦،٥ سنتم، يتألف من ٣٩٩ صفحة مع لحظ أخطاء في الترقيم، ورقه صقيل مقوى وخطه واضح. يعود للعام ٩٢٥هـ أي ١٥١٩م. يتضمن كل ما يتعلق بقرى ومزارع نواحي إيالت طرابلس لجهة النفوس والحاصلات والتيمار والأوقاف وقانونامه.

(١٠) هذا الدفتر يعود للعام ٩٧٥هـ أي ١٥٧١م وهو يتضمن إضافة الى القانونامه، كل ما يتعلق بقرى ومزارع لواء طرابلس لجهة النفوس والحاصلات والتيمار والأوقاف. يمكن العودة الى بحثنا الذي قدمناه في المؤتمر العالمي الرابع للدراسات العثمانية وكان بعنوان «التقسيمات الإدارية لشمال لبنان أوائل القرن السادس عشر (١٥١٩م - ٩٢٥هـ)».
راجع المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية، العدد الخامس والسادس، فيفري ١٩٩٢، منشورات مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسكية والتوثيق والمعلومات، زغوان - الجمهورية التونسية، ص ١٧٧ - ١٨٧.

(١١) الدفتر ٥١٣، ص ٣١.

(١٢) الدفتر رقم ٦٨، بين الصفحتين ١٠٣ - ١١٨.
يذكر الخوري فرنسيس رحمة القرى التالية التي تؤلف جبّة بشرّي: اجبع - ارنيا - اسلوت - اصنون - إهدن - ايطو - بان - بتحلين - بحبوش - بحويتا - برحليون - بريسات - بزعون - بحيرة تولا - بسبعل - بسلوقيت - بشنين - بقاعكفرا - بقرقاشا - البكليك - بلا - بلقيس - بنشعي - بلوزا - بيت شومار - بيت الشعار - بيت منذر - بنهران - تولا الجبّة - حدث الجبّة - حدشيت - حرقا - حرف مزيارة - الحسين - حصرون - حوقا - الخالدية - دارية - دير بلاّ - دير نبوح - الديمان - راسكيفا - رشدبين - ريشتعموت - زعرتا المتاولة - الزكزوك - سبعل - سرعل - شيرا - طرزا - عبداللي - عابدين - عربة قزحيا - عرجس - عين بقرا - عين سبعل - عين طورين - عين عكرين - الفراديس - قنات - قنوبين - قنيور - كرمسده - كفرصغاب - كفرصارون الجبّة - كفرزينا - كفرشخنا - كفرفو - كفور العربة - كفرياشيت - كوسايا - متريت - المجدل - المدقور - مزرعة ابي صعب - مزرعة التفاح - مزرعة عساير - مزيارة - مغر الاحول - مزرعة مار اليشاع - مزرعة النهر.
الخوري فرنسيس رحمة، تاريخ بشرّي ج١، سان باولو البرازيل، ١٩٥٦، ص ٥٨٣.

(١٣) الدفتر رقم ٥١٣، بين الصفحتين ١٢٦ - ١٤٥، والصفحة ٣٠٠ - ٣٠١.

(١٤) Amnom COHEN, Bernard LEWIS, Population and revenue in the towns of Palestine in the sixteenth century, Princeton, 1978.

(١٥) Emmanuel Le Roy LADURIE, Parmi les historiens, Gallimard, Paris, 1983, p. 15.

(١٦) المرجع السابق، ص ٥٨ - ٥٩.

(١٧) Maria Luiza MARCILIO, Hubert CHARBONNEAU, Démographie historique.

(١٨) Hervé COUTAU-BERGARIE, Le phénomène «nouvelle histoire», Economica, Paris, 1983, pp. 138 - 144.

(١٩) Omer Lutfi BARKAN, J.E.S.H.O. (Journal of the economic and social history of the Orient), v, 1957, p. 21 et p. 28 et p. 33.

(٢٠) Antoine ABDEL NOUR, Introduction à l'histoire urbaine de la Syrie ottomane (XVI-XVIIIe siècle), Pub. de l'Université Libanaise, Beyrouth, p. 310.

(٢١) كوهين ولويس، المرجع السابق، ص ١٥، مع العلم أن الباحثين يعتمدان في دراستهما الرقم ٦ للخانة.

(٢٢) الدفتر رقم ٦٨، ص ١١٦ حيث يرد النص التالي: «حماية بطرك النصارى در دير قنوبين ٢٦٠٠» (آقجة).

(٢٣) الزعامت هي كل اقطاع عسكري لا يقل دخله السنوي عن ٢٠ الف آقجة. (دائرة المعارف الاسلامية، م ٦، لات، ص ١٤٠).

(٢٤) نظام التيمار اونظام الاقطاع العسكري هو نظام اقتصادي اداري عسكري يرتكز على منح الأرض، في الدولة العثمانية، الى تميارجيين نظير خدمة حربية للدولة. . . ودخل التيمار يقل عن ٢٠ ألف آقجة.

Nicoara BELDICEAUNU, Le Timar dans l'état Ottoman, 1980, Otto Harrossuitz, Wiesbaden, p. 21.

وكذلك دائرة المعارف الاسلامية، المرجع السابق، ص ١٣١. مع العلم أن أغلب اسماد التيمرجيين هي أسماء تركية على الأرجح.

(٢٥) كانت أراضي الأوقاف تخصص إيراداتها للغرض الذي وقفت عليه (مدرسة، مسجد، برج الخ. . .) جب وبون، المجتمع الاسلامي والغرب، ترجمة د. احمد عبد الرحيم مصطفى، ج ٢، دار المعارف بمصر، ١٩٧١، ص ٥٦ ـ ٥٧.

وكذلك راجع الدراسة التي قدمناها عن الأوقاف في شمال لبنان في القرن السادس عشر، بحث مقدم الى المؤتمر الدولي حول الدراسات العثمانية والذي عقد في اكس ـ ان ـ بروفانس فرنسا ١٩٩٣ ـ ٣ ـ ٦ آب.

(٢٦) راجع دراستنا عن الديموغرافية التاريخية لناحية الكورة وأنفه في القرن السادس عشر، بحث قدّم الى المؤتمر الذي عقد في انترناشونال سكول بترومين في ١٦ و٢٣ نيسان ١٩٩٤ حول تاريخ الكورة في العهد العثماني.

(٢٧) تطلق لفظة الجزية في الشريعة على الأموال التي تفرض على أهل الذمة. (دائرة المعارف الاسلامية، ج ٦، المرجع السابق، ص ٤٥٤). وهناك تباين في وجهات النظر فبعض الباحثين يؤكدون ان هذه الجزية كانت تفرض فقط على أسماء الخانة، والبعض الآخر يعتبر أن الجزية كانت تفرض على كل الذكور الناضجين. وفي كل الاحوال ما كانت تطال المعتوهين والمقعدين والمجانين ومن اليهم.

(٢٨) تجدر الإشارة الى أننا اعتبرنا مزرعة التفاح بمثابة قرية لأنها مأهولة بعائلتين برغم اطلاق تسمية المزرعة عليها. وكذلك اعتبرنا أن بقاع كفرا هي قرية مأهولة برغم عدم إيراد الدفتر أي وجود لأسماء السكان. ويفترض فينا التساؤل: هل أن عوامل مناخية أم غيرها حملت الموظفين على عدم القيام بمهمة الإحصاء؟!

(٢٩) قرية اندثرت حالياً وهي موجودة قرب إهدن طبقا للخرائط الجغرافية. وهي غير افقة الواقعة في جبّة المنيطرة.

(٣٠) تجدر الإشارة الى أن قراءاتنا لإسم هذه القرية في الاحصاء الثاني هو من باب الترجيح وليس من باب التأكيد، وذلك لصعوبة قراءة الأسماء في الطابو دفتري رقم ٥١٣.

(٣١) كذلك قراءتنا لاسم هذه القرية هو من قبيل الترجيح وليس من قبيل التوكيد.

(٣٢) حسب ما أكد لنا الدكتور معين حداد انطلاقاً من الأبحاث التي قام بها استناداً الى الـ Planimètre.

لقد أعطى الأب فرنسيس رحمه لجبّة بشرّي التحديد التالي:

يحدها جنوباً الوادي بين قنات ومزرعة أبي صعب.

وتخمها الغربي حدود الزاوية الشرقية.

أما تخمها الشرقي فضهر القضيب باسناده الجنوبية والشمالية. . . واليك خطوطها ابتداء من مخرم طريق عيناتا شرقاً في السفح الغربي: مقلب بعلبك في ضهر المكمل المطل على البقاع ـ فم الميزاب أي مقلب القرنة السوداء ـ جرد الاجاص المتاخم منطقة الضنية ـ مقلب بحويتا ـ حرف مزيارة ـ مزيارة المتاخمة للضنية ايضاً. ومن ثم مراح كفرصغاب المتاخم منطقة الزاوية ـ بنشعي ـ كفرفو ـ راسكيفا ـ نهر ابو علي ـ مقلب كربريه ـ سرعل ـ وادي سرعل ـ الحسين ـ مغر الأحول ـ رشدبين المتاخمة للكورة ـ عين عكرين ـ بحبوش ـ بزيزا ـ داربلا ـ بيت كساب ـ حردين ـ نيحا ـ ارز البلاد ـ حدث الجبّة ـ عين ورده ـ الرهوة والبحصة ـ فم الديب ـ المكمل الذي هو منتهى الدائرة.

الخوري فرنسيس رحمة، المرجع السابق، ص ٤٨٣.

أما بشرّي فقد اعطاها الخوري إغناطيوس جعجع التحديد التالي: حدودها جنوباً نهر قاديشا وواديه المشهور

بصوامعه التي كان عددها، كما يقال عدد أيام السنة، وكان يتصاعد دخان بخورها صباحاً كالضباب، وشرقاً نهر نبات، وغرباً نهر الرويس، وشمالاً الجلسة وشير حاطوم.

الخوري اغناطيوس جعجع، بشرّي مدينة المقدمين، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩٣٢، ص ٢.

(٣٣) N. TODOROV, A. VELKOV, Situation démographique de la péninsule balkanique (fin du XVe s. - début du XVIe s.) Ed. de l'académie Bulgare des Sciences, Sofia, 1988, p. 30.

(٣٤) فرنان بروديل، المرجع السابق، ص ٣٦٣.

(٣٥) المرجع السابق، ص ٣٧١ ـ ٣٧٥.

(٣٦) جاء في مقررات المجمع الماروني الذي عقد عام ١٥٨٠:

«القانون الثالث: إن الأولاد لما وصلوا الى السنة الرابع عشر من عمرهم ان كان يتزوجون بغير اذن والديهم قد لا تتعوق ولا تبطل تلك الزيجة ولو والديهم لم يرتضوا بذلك كما رتب في المجمع العام الذي صار في مدينة ترنتو».

من مقال للأب بطرس ديب بعنوان المجمع الماروني الملتئم سنة ١٥٨٠.

المنارة، ج ٢، ١٩٣٢، ص ٦٧٤.

(٣٧) A. RABBAT, Documents inédits pour servir à l'histoire du christianisme en Orient, T 2, p. 616.

(٣٨) راجع على سبيل المثال لا الحصر الأب بطرس ضو، تاريخ الموارنة، ج ٤، ١٩٧٧، ص ١٨٠، حتى أن الدويهي يذكر أن الموارنة الذين قتلوا في قبرص، من جراء الفتح العثماني عام ١٥٧٠، لا يقلّون عن ٣٠ ألف، تاريخ الأزمنة، المشرق، ٤٤، بيروت ١٩٥٠، ص ٢٧٠.

(٣٩) الأب بطرس فهد، علاقات الطائفة المارونية بالكرسي الرسولي المقدس، جونيه، ١٩٦١، ص ٦٢.

(٤٠) الخوراسقف بولس قرألي، الموارنة في لبنان، جونيه، ١٩٤٩، ص ٩٧.

(٤١) البطريرك اسطفانوس الدويهي، تاريخ الأزمنة ١٠٩٥م ـ ١٦٩٩م، نشر وتعليق الأب فردينان توتل اليسوعي، المشرق، السنة ٤٤، ١٩٥٠، المطبعة الكاثوليكية بيروت، ١٩٥١، ص ١٤٦. وكذلك البطريرك مار اسطفان الدويهي، تاريخ الطائفة المارونية، عُني بطبعه رشيد الشرتوني، بيروت، المطبعة الكاثوليكية، ١٨٩٠، ص ١١٥. وحول هذه الأحداث يمكن مراجعة المطران يوسف الدبس، تاريخ سوريا، م ٦، بيروت ١٩٠٢، ص ٢٦٤ ـ ٢٦٥.

وكذلك د. فيليب حتي، لبنان في التاريخ، ترجمة د. أنيس فريحة، دار الثقافة، بيروت، ١٩٥٩، ص ٣٩٧.

(٤٢) المطران يوسف الدبس، الجامع المفصل في تاريخ الموارنة المؤصل، دار لحد خاطر، بيروت، ١٩٧٨، ص ١٤٠.

(٤٣) Matti MOOSA, the Maronites in history, Syracuse University Press, 1986.

في خلاصة الفصل ٢٢، ص ٢٤٤ يؤكد أن الموارنة كانوا سرياناً ارثوذكس.

(٤٤) المجلة البطريركية، مجلد ٥، سنة ١٩٣٠، ص ٦٠٥.

(٤٥) المجلة البطريركية، مجلد ٦، سنة ١٩٣١، ص ٣٧.

(٤٦) الفيكنت فيليب دي طرّازي، أصدق ما كان في تاريخ لبنان وصفحة من أخبار السريان، المجلد الأول، مطابع صيقلي، بيروت، ١٩٤٨، ص ٧٨ ـ ٧٩.

(٤٧) المرجع السابق، ص ٧٩.

(٤٨) المرجع نفسه، ص ٨٠.

(٤٩) من مقال للخوري ميخائيل الرجي في مجلة المشرق بعنوان «الطقس الماروني»، عام ١٩٣٥، م ٣٣، ص ٤٨١ ـ ٥٢٢.

(٥٠) جاء في تاريخ الأزمنة للدويهي: «. . . ان في قرية حدشيت انعدوا عشرين كاهن، وفي كنايس بشرّي مذابح على عدد أيام السنة، وفي الحدث ستماية فدان، وفي إهدن في الحارة الفوقا سبعين بغل». الدويهي، المرجع السابق، ص ٢١٤.

(٥١) اعتبرنا أن في الحارتين الفوقا والتحتا في إهدن يوجد ١٤٠ فلاحاً على الأقل، باعتبار أن كل منزل يقتني بغلاً واحداً.

(٥٢) الخوري ميخائيل عبدالله غبرئيل الشبابي، تاريخ الكنيسة الانطاكية السريانية المارونية، المطبعة اللبنانية، بعبدا، لبنان، ١٩٠٤، المجلد الثاني، القسم الأول، ص ٣٢٦ - ٣٢٤.

(٥٣) المرجع السابق، ص ٣٢٧.

(٥٤) المرجع نفسه، ص ٣٢٧.

(٥٥) نقلاً عن فيليب دي طرازي، المرجع السابق، ص ٣٢.

(٥٦) نقلاً عن فيليب ذي طرازي، المرجع السابق، ص ٣٣٤ - ٣٣٥.

(٥٧) نقلاً عن فيليب دي طرازي، المرجع السابق، ص ٣٣٦. وحول إبن القلاعي يمكن مراجعة:
Pierre DIB, Histoire de l'Eglise Maronite, Ed. La Sagesse, Beyrouth, 1962, pp. 100 - 103.

(٥٨) الخوري بولس قرألي، المجلة السورية، مجلد ٥، سنة ١٩٣٠، ص ٥١٤، بطرس فهد، علاقات الطائفة المارونية بالكرسي الرسولي المقدس، ١٩٦٧، بيروت، ص ٦٦.

(٥٩) ميخائيل غبرئيل، المرجع السابق، ص ٣٩٧.

(٦٠) Kamal SALIBI . The Muqaddams of Bsharri, Bib. Oriental. 144 A6.

(٦١) الدبس، تاريخ سوريا، م ٧، ص ٢٨ و١١٨.

(٦٢) البطريرك اسطفان الدويهي، تاريخ الأزمنة، المرجع السابق ص ١٧٩.
حول الأمراض والمناخ والأسعار في جبل لبنان يمكن مراجعة اطروحة الديبلوم التي أعدّها فادي توا، كلية الآداب (الفرع ٢)، الجامعة اللبنانية، بإشراف د. عصام خليفة، ١٩٩٢.

(٦٣) الدويهي، المرجع السابق، ص ١٩٧.

(٦٤) المرجع نفسه، ص ١٩٩.

(٦٥) المرجع نفسه، ص ٢١٢.

(٦٦) المرجع نفسه، ص ٢١٣.

(٦٧) المرجع نفسه، ص ٢١٩.

(٦٨) المرجع نفسه، ص ٢٢٢.

(٦٩) المرجع نفسه، ص ٢٢٨.

(٧٠) المرجع نفسه، ص ٢٢٧.

(٧١) المرجع نفسه، ص ٢٤٠.

(٧٢) إن ما جاء في تاريخ الأزمنة عن وجود كنائس في بشرّي ومذابح على عدد أيام السنة، ووجود عشرين كاهن في قرية حدشيت، ووجود ستماية فدان في الحدث، ووجود سبعين بغل في إهدن الفوقا، إضافة الى ما ذكر عن قول للدويهي: «. . . حتى ان في يوم خميس الاسرار لما اندق الناقوس لسماع القداس الطاهر ومناولة الاسرار الالهية انضبطوا خمسماية مساس الفلاحة على باب هيكل مار دانيال من الذين كانوا يحرثوا أرض الحدث».
(الخوراسقف بولس قرألي، الموارنة في لبنان، المرجع السابق، ص ٩٢).
نقول أن هذه المعطيات التي تؤكد وجوداً ديموغرافياً واسعاً لا يتناسب مع ما طرحناه من أرقام استناداً الى الطابو دفتري.

(٧٣) الخوري مخائيل غبريل، المرجع السابق، ص ٣٦٢ وهناك رسائل من البابوات الى المقدمين يدعونهم لاحترام رؤسائهم الدينيين ولتحمل اضطهاد غرباء في منطقتهم. الخوري فرنسيس رحمة، المرجع السابق، ص ٣٠٩.

(٧٤) البطريرك الدويهي، تاريخ الأزمنة، المرجع السابق، ص ٢٥١.

(٧٥) المرجع السابق، ص ٢٥٤.

(٧٦) المرجع نفسه، ص ٢٥٨.

(٧٧) المرجع نفسه، ص ٢٧١ وكذلك الأباتي بطرس فهد، بطاركة الموارنة واساقفتهم في القرن السادس عشر، ١٩٨٢، ص ٣٩. وكذلك راجع الخوري فرنسيس رحمة، المرجع السابق، ص ٣٠٩.

(٧٨) البطريرك الدويهي، المرجع السابق، ص ٢٥٤.

(٧٩) المرجع نفسه، ص ٢٦٢.

(٨٠) الأب بطرس فهد، علاقات الطائفة المارونية. . .، المرجع السابق، ص ٦٣. علماً ان البطريرك الدويهي يشير في

حولياته الى أن اللحم كان من أغذية أهل الجبّة.

(٨١) المطران داود الماروني، تحقيق الأخ بطرس تامر فهد العشقوتي، كتاب الهدى، حلب، ١٩٣٥، ص ٧٨.

(٨٢) المرجع السابق، ص ١٩٥.

(٨٣) المرجع نفسه، ص ٢٨٢.

(٨٤) فرنان برودل، المرجع السابق، ص ٥٦ و٥٧. والجدير بالملاحظة قوله أن الملاريا كانت عامل قضاء على الولادات ومستمرة الاستيطان في حوض المتوسط وكذلك الطاعون.

(٨٥) المنارة، المرجع السابق، عام ١٥٣١، ص ٥٣٢.

(٨٦) الدويهي، المرجع السابق، ص ٢٦٠، و٢٥٤، ص ٢٥٢، وص ٢٤٦، وص ٢٤٤، وص ٢٤٠.

(٨٧) يمكن مراجعة Annales de démographie historique, 1972, Paris, p. 149.

(٨٨) الخوري فرنسيس رحمة، المرجع السابق، ٣٠٠ - ٣٠١.

(٨٩) المرجع السابق، ص ٣١٣ - ٣١٤.

(٩٠) المرجع نفسه، ص ٣١٤ - ٣٢٠.

(٩١) ذكر سمعان الخازن في كتابه، تاريخ إهدن، ج ١، ص ١١٨، أن مقدمي بشرّي كانوا متاولة.

اسماء الذكور الناضجين في بشرّي تبعاً لاحصاء ١٥١٩

اسماء الذكور الناضجين في اهدن تبعاً لاحصاء ١٥١٩

اسماء الذكور الناضجين في اهدن تبعاً لاحصاء ١٥١٩

اسماء الذكور الناضجين في قرية حصرون ١٥١٩.

اسماء الذكور الناضجين في راسكيفا تبعاً لاحصاء ١٥١٩.

اسماء الذكور الناضجين في سبعل تبعاً لاحصاء ١٥١٩.

اسماء الذكور الناضجين في بان تبعاً لاحصاء ١٥١٩.

اسماء الذكور الناضجين في عين تورين تبعاً لاحصاء ١٥١٩.

اسماء الذكور الناضجين في كفرفو تبعاً لاحصاء ١٥١٩.

اسماء الذكور الناضجين في حورونا تبعاً لاحصاء ١٥١٩.

اسماء الذكور الناضجين في بصلوقيت تبعاً لاحصاء ١٥١٩.

اسماء الذكور الناضجين في افقة تبعاً لاحصاء ١٥١٩.

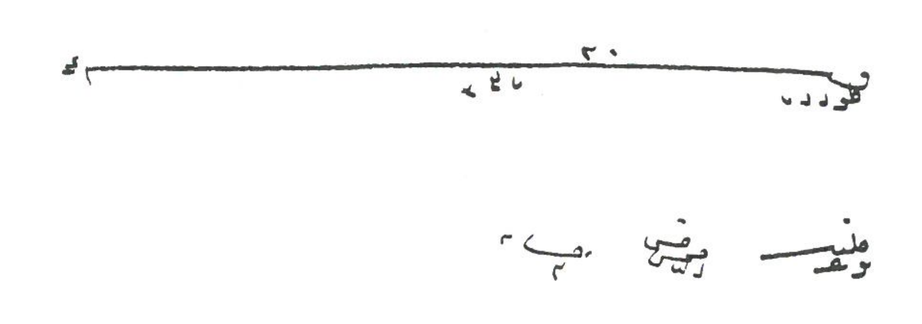
اسماء الذكور الناضجين في اهدن تبعاً لاحصاء ١٥٧١

اسماء الذكور الناضجين في اهدن تبعاً لاحصاء ١٥٧١

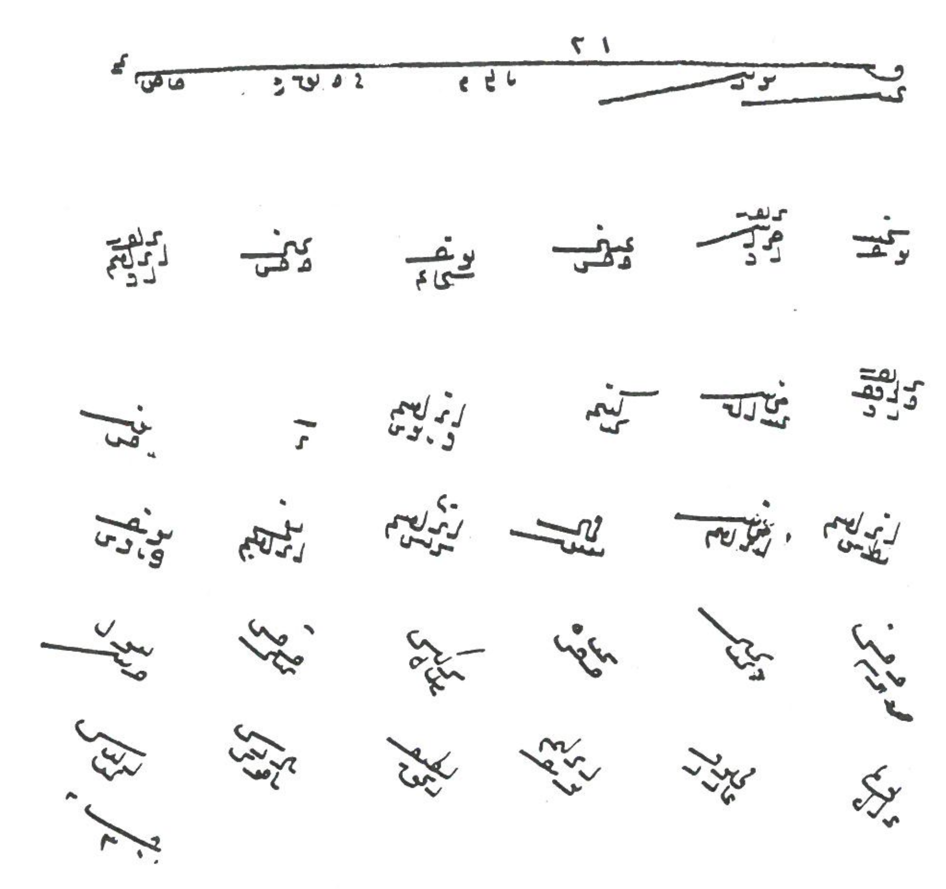
اسماء الذكور الناضجين في اهدن تبعاً لاحصاء ١٥٧١

اسماء الذكور الناضجين في اهدن تبعاً لاحصاء ١٥٧١

اسماء الذكور الناضجين في بصلوقيت تبعاً لاحصاء ١٥٧١



اسماء الذكور الناضجين في طورزا تبعاً لاحصاء ١٥٧١



اسماء الذكور الناضجين في عين تورين تبعاً لاحصاء ١٥٧١

اسماء الذكور الناضجين في بشرّي تبعاً لاحصاء ١٥٧١

اسماء الذكور الناضجين في بشرّي تبعاً لاحصاء ١٥٧١

اسماء الذكور الناضجين في الحدث تبعاً لاحصاء ١٥٧١

اسماء الذكور الناضجين في بان تبعاً لاحصاء ١٥٧١

الالتزام في مناطق من شمال لبنان
من خلال وثائق الأرشيف العثماني(*)

أولاً: من نظام التيمار إلى نظام الالتزام:

سأحاول في الموضوع الذي سأعالجه أن أطرح بعض الملاحظات الأولية حول نظام التيمار ونظام المقاطعة أو الالتزام منطلقاً في ذلك من بعض الوثائق التي اطلعت عليها في «الباشبكنليك ارشيفي»، وكذلك من بعض الدراسات لباحثين في التاريخ العثماني. والسبب الذي حدا بي الى ذلك هو الخلط القائم بين هذين النظامين لدى أكثريّة الباحثين عندنا.

وأجد من الواجب التوقّف عند بعض الملاحظات:

١ ـ نظام التيمار، كما نظام الالتزام، هما مرتبطان بآليّة الضرائب في الدولة العثمانية.

٢ ـ الضرائب، كما هو معروف، كانت مقسّمة الى ثلاثة أنواع:

ـ الضرائب العادية (رسومي عرفية).

ـ والضرائب الدينيّة (رسومي شرعيّة).

ـ والضرائب غير العاديّة (أفاريز ديوانيّة).

٣ ـ إن ملاحظاتنا تتناول فقط بعض المناطق من ولاية طرابلس. وهذه الولاية تغيّرت تقسيماتها الادارية بين فترة وأخرى، وكذلك تغيّرت مساحتها وعدد نواحيها وقراها بين القرنين السادس عشر والثامن عشر. فتبعاً لأول احصاء عثماني جرى عام ١٥١٩(١)، يمكننا ايراد النواحي التالية ضمن لبنان الحالي فتوح بني رحّال (فتوح كسروان لاحقاً)، منيطرة، جبيل، البترون، الكورة، أنفة، بشري، زاوية، ظنيّة، عرقا وعكار(٢).

٤ ـ في أواخر القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر نلاحظ وجود نواح جديدة منها ناحية الشعرا وناحية الهرمل وغيرهما، كما نرى اندماج أو انفصال نواح أخرى عن ولاية طرابلس.

٥ ـ في فترة ازدهار نظام التيمار، في القرن السادس عشر، كان هناك وجود لنظام الالتزام على نحو هامشي.

٦ ـ كل الأراضي الزراعية، في القرن السادس عشر، كانت ملكاً للدولة باستثناء ما كان مخصصاً للأوقاف(٣) وباستثناء الأراضي التي تقوم عليها البيوت فقد كانت ملكاً خاصاً، وأراضي الدولة كانت تسمى أراضي الميري.

٧ ـ هذه الأراضي كانت تقسم إلى اقطاعات تتبع للسلطان أو لأعضاء أسرته وأهل الخدمة في

(*) بحث قدم الى المؤتمر العلمي الاول الذي عقدته الجمعية اللبنانية للدراسات العثمانية، وكان عنوانه «لبنان في القرن الثامن عشر»، ١٩ ـ ٢٠ ك١ ١٩٩١.

القصور أو الموظفين المدنيين، أو يخصص لتموين قلاع الحدود أو للسباهية وكبار ضبّاطهم(٤).

٨ ـ التيمار، بالنسبة للباحثين العثمانيين، ليس سوى هبة معطاة من السلطان مقابل مشاركة الموهوب بالمهمّات العسكرية للدولة(٥).

٩ ـ ثمة تنوّع في أنواع التيمار تبعاً لمصدر الدخل، إذ هناك:

ـ التيمار الزراعي:

أغلبية التيمارجيين يستمدّون مداخيلهم من أوساط زراعية. وهذا يعني أن السيباهي يتمتّع بالضرائب التي يدفعها الفلاح.

ـ التيمار المختلط:

ثمّة تيمارات مداخيلها زراعية ريفية ومدنيّة. وهذا النوع كان يستلمه في أغلب الأحيان الصوباشي، أو السنجق بك أو غيرهما من الموظفين الكبار.

ـ التيمار المدني:

وهو مرتكز على تحصيل الضرائب المدينية، كالضرائب المفروضة على الدكاكين وعلى المطاعم والمصابغ، أو تلك المجموعة من منتجات الخل والنبيذ أو المواد الغذائية أو الحبوب وغيرها... وتيمار المدينة لا يرتبط بمساحة جغرافية محدّدة كما هو الحال بالنسبة لتيمار الريف(٦).

١٠ ـ في نظام التيمار توزّع واردات كل «لواء» أو «ناحية» بين السلطان، المير لواء أو المير ميران، عدد كبير من أصحاب التيمار أو «الزعامت»، ثم مؤسسات «الوقف» المتنوعة.

١١ ـ في نظام التيمار كان السباهي يقيمون في اقطاعاتهم ويمارسون نوعاً من السلطة التشريعية إزاء فلاحيهم، ولكنهم كانوا تحت رقابة من جانب الحكومة المركزية، وكانت أراضيهم تخضع لعمليات مسح دورية لأغراض تتعلق بالضرائب(٧).

١٢ ـ ابتداءً من القرن السابع عشر فصاعداً، ونظراً لتزايد احتياج الحكومة للأموال السائلة، وهو التطور الناجم عن التغير في نمط تسليح الجيش ثم جاء التضخم ليزيده حدّة، ازداد استيلاء السلاطين على أراضي فئة السباهي عند وفاتهم وكانت هذه الأراضي الجديدة المستولى عليها تسلّم إلى جباة الضرائب، الذين أصبح لهم الحق في جبايتها من رقعة محدّدة من الأرض. وهكذا في القرن الثامن عشر أصبح نمط الالتزام سائداً(٨).

١٣ ـ ثمّة أسباب رئيسية أخرى أدّت الى انهيار نظام التيمار وقيام نظام الالتزام منها:

أ ـ تدفّق الفضّة نحو الدولة العثمانية (خاصة من الولايات المتحدة) الأمر الذي أحدث اضطراباً اقتصادياً وأثّر على نظام الأراضي.

ب ـ ضعف الحكومة المركزيّة وترك تسجيل الأرض.

ج ـ إهمال الحكومات العثمانية لجيش «السباهي» نظراً لقدرة المشاة، بأسلحتهم النارية، على

الوقوف في وجه الجيوش الأوروبية.

د ـ استيلاء رجال البلاد والحرس والموظفين الرسميين في الأقاليم على الاقطاعيات وتحويلها أملاكاً خاصة، كما أن عدداً كبيراً من الضيع التي كانت تخصّ الفلاحين انتقلت إلى ملكية الجنود. وهكذا فإنّ سبب تراجع نظام التيمار يرتبط بتحوّل أراضي الخاص والتيمار التي كانت سابقاً في عهدة البكاوات والباشوات وغيرهم من رجالات الدولة، باتجاه السيطرة المباشرة لخزينة الدولة حتى وزّعت بالالتزام. اي بدل أن تعيّن الدولة العائدات من السناجق للباشوات والخاص للبكوات أعطت المقاطعات للملتزمين أو لحكّام يتصرّفون كملتزمين.

هـ ـ أصبحت الأراضي الحكوميّة ـ نتيجة لفساد نظام السباهي في الاقاليم ـ خاضعة لنظام جديد من الايجار يسمّى «المقاطعة أو الالتزام»(٩).

و ـ أحدث انتشار نظام الالتزام نشوء طبقة قويّة من الملتزمين سيطرت على مجمل عائدات الدولة. كما انخرطت أكثر في مسؤوليات الادارات الاقليمية. وبالإجمال تألفت شرائح الملتزمين من أناس جمعوا أموالاً طائلة وعاشوا في مراكز مدينيّة. وفي غالب الأحيان كانوا امّا حرفيين أو من كبار التجار الذين تعاطوا تجارة بين المناطق وقاموا بعمليات نقدية.

ثانياً: مقوّمات وآليّة نظام الالتزام في الدولة العثمانية:

الالتزام هو ـ كما تحدّده انسيكلوبيديا الإسلام ـ نمط من أشكال تسديد الضرائب في الدولة العثمانية(١٠). ولزم المال فلاناً وجب عليه، وألزم المال أوجبه عليه، التزم فلان القرية والعشر وغيرهما أي ضمنها بمال معيّن يدفعه للحاكم بدل ريعها(١١). إنه يعني بيع ضرائب اقليم ما لمدة سنة أو أكثر، لأحد المتنفذين الذين عرفوا بالملتزمين، لكي تضمن الدولة لخزينتها مدخولاً معتبراً ومحدداً(١٢). ذلك أن الدولة لم يكن لديها جيش من الموظفين كما هو في زماننا الحاضر. فكانت تفرد الخدمات أو الجبايات فتجعلها مقاطعة بمعنى انحصار في أكثر الأحيان. فالمقاطعة هي ما أفرد من أقلام دخل الخزينة من جباية (كجباية أعشار وخراج الخواص السلطانيّة أو جباية جزية نصارى أو جمرك ميناء..) وكانت المقاطعة تضمن بالمزايدة فمن زاد وجاء بكفلاء معتبرين التزم المقاطعة (لمدة معينة) وكان يعبَّر عنها بـ(تحويل) ويمكن الجمع بين تحويلين أو ثلاث كما أنه كان باستطاعة أي كان أن يزيد في سعر المقاطعة قبل انقضاء التحويل ويلتزمها ابتداءً من يومه حتى آخر التحويلة. ويحاسب الملتزم الأول على حساب قسط اليوم، أي على ما يجب على ذمته من حاصل قسمة بدل الالتزام على عدد أيامه مضروباً بعدد الأيام التي تصرف بها بالمقاطعة. ومن لا يستطيع اداء ديونه يصادر شخصياً ثم يصادر كفلاؤه إن لم يؤدّوا مقدار ما كفلوه به، إذ ليس من المشترط أن يلتزم كل واحد منهم بكل المبلغ، ثم يسجن هو وقد يقتل.

فالملتزم يضطر لأن يجبي على الأقل ما يفي بقسط اليوم بالإضافة الى نفقاته الضرورية على الأقل، ثم الحصول على ربح إذا أمكن. فإن إمكان إحالة المقاطعة خلال التحويل إلى من يزيد يقلل بالتالي من نصيب الربح للملتزم الأخير. ولهذا كان على الملتزم ألا تفوته الفرصة في تحصيل

وجباية نصيب من المال ولو كان ذلك في غير صالح اقتصاديات البلاد(١٣).

وكان يتوجّب على الملتزم المعروف أيضاً بالعميل ـ أو العميل دار ـ وهو الذي يصرّح عن المزاد أو يشترك شخصياً بالعقد أن يقدّم دفعات على مبلغ معيّن تقرّره الشروط المطلوبة (الشرطنامة)، وغالباً ما كانت تتطلّب هذه الشروط دفعة أولى نقداً، تتبعها أقساط شهريّة أو فصليّة أو نصف سنويّة. وبموجب هذه الشروط كان على الملتزم أن يقدّم جميع أملاكه ضمانة، كما كان يجب عليه، في الآن نفسه، أن يعرض ضمانات إضافيّة يعتمد على قيمتها.

وبالرغم من كون الالتزام هو أساساً عمليّة تبادل تجاري فقد كانت هذه العمليّة تخضع لشروط أخرى. فقد كانت الدولة تحتفظ لنفسها بحق التدخّل في أيّة مرحلة من مراحل تحصيل الالتزام. فلو قدّرت عائدات مقاطعة أقلّ بكثير من قيمتها الفعليّة، فكان يحقّ للدولة أن تبطل عقد الالتزام دون أيّ تعويض للملتزم. وكان هناك موظف حكومي يدعى أمين يعيّن لكل ملتزم، ومهمّته التدقيق في الحسابات. ومن جهة أخرى كان يطلب من مديري المقاطعات مساعدة الملتزمين في جبايه العائدات وتوفير فرق الجباة متى دعت الحاجة. وقد أدى هذا الشرط الأخير الى تقارب بين الملتزمين من جهة، والادارة الإقليمية للدولة من جهة أخرى.

وكان باستطاعة الملتزم أن يقسّم مقاطعته إلى وحدات صغيرة ويبيعها بدوره إلى ملتزمين ثانويين.

وقد نتج عن ذلك سلسلة من الملتزمين المعتمدين على بعضهم ضمن خط عمودي يمتد من عاصمة السلطنة إلى أصغر قضاء.

وفي البداية كانت القاعدة تنصّ على استثمار المقاطعة لمدة لا تزيد عن سنة أو ثلاث سنوات. ومع الوقت تغير هذا التدبير ومنح الملتزمون بأعداد متزايدة حقوقاً في مقاطعاتهم لمدى الحياة وفي بعض الأحيان أُعطي لورثتهم حقوق الأفضلية بالمزاد. وهذا التدبير الجديد عرف بالمالكانه والذي بنتيجته أعطى الملتزم نوعاً من الملكية على أراض امتدت وشملت قرى بكاملها. ومهما يكن من أمر فإن الحصول على التزام ما، في مطلق مقاطعة، كان يعني اضفاء نوع من الثراء والغنى لصاحبه على وجه الاجمال. وهذا الثراء كان غالباً غير واضح أو بمعنى آخر غير شرعي. والثراء يحمل الملتزمين على التزام عقود أكثر أهميّة فيتمّ، بذلك، اكتساب ثروة أكبر ومكانة أسمى في فترة من الزمن قصيرة نسبياً.

وهكذا فإن الانتشار الواسع لنظام الالتزام في الإدارة الماليّة للدولة العثمانية، وما صحبه من صعود طبقة جديدة من الملتزمين، هو من أهم التحوّلات التي عرفها التاريخ العثماني بشكل عام(١٤).

ثالثاً: دفتر الماليدين رقم ٦٧٤٧ حول التزام مقاطعات من ولاية طرابلس

الوثائق التي بين أيدينا وعددها ٥ مصوّرة من أرشيف (الباشبكنليك أرشيفي) من الدفتر رقم ٦٧٤٧ تحت عنوان عام ماليدين مدوّر.

وتحت هذا العنوان تندرج مجموعات من الدفاتر . هذه الدفاتر منها ما يتعلّق بـ:

- أي الضريبة التي تدفع عند تحرّك الجيش الى الجبهة من قبل بعض السكّان .

- 1 Bedel - I nüzul

- ضريبة العوارض (في أوقات عسيرة تفرض الدولة على المكلّفين ضرائب استثنائيّة).

- 2 Hane - I avariz

- فواكه أو أشياء أخرى تباع للجيش .

- 3 Bedel - I sursät

- هي الدفاتر التي تحتوي أوامر النقل أو التبديل أو التعيين للتيمارجيين .

- 5 Timar deft.

- الدفاتر المتعلّقة بأجور الجيش .

- 6 Mevacib deft.

(الموجب أو العلوفات التي تدفع نقداً لأفراد الجيش في الأصل مرّة في نهاية كلّ ثلاثة أشهر ، ولكن كان ذلك متعثراً فكانت تدفع مرّة كل ستّة أشهر أو مرّة كل سنة . فدفاتر المواجب هي التي تسجّل الأجور حسب أسماء الجند . فيكتب اسم الجندي وتحته أجرته اليوميّة ومجموع اليوميّات إذا ضرب بعدد أيّام الثلاثة أشهر يشكّل المبلغ الذي يطلق عليه المقرّر أو قسط الواجب .

- الدفاتر التي تتضمّن أوامر الدفترداد (للالتزام وغيرها) .

- 7 Ahkam Maliye deft.

- الأوامر المتعلّقة بنقل الذخائر أو التحصينات العسكريّة .

- 3 Muhim mät deft.

- أحكام التوظيف أو الشكايات التي يتمّ النظر فيها .

- 9 Beravat ve Ahkam - 1 Sikayat.

- الدفاتر التي تتضمّن أسماء بعض الملتزمين الذين لم يؤدّوا ذمّتهم ، فتسجّل الأسماء مع مقدار المبلغ المتبقي عليهم .

- 10 Zimmet deft.

- الميزانيات في الغالب أو دفتر جورنال الخزانة .

- 11 Irade ve masrai.

- ميزانيات الولاية أو الدولة .

- 12 Muhaseb Icäl.

- الوظائف الشاغرة .

- 13 Mahlulät.

- أي قيود التزامات المقاطعات والدفتر .

- 14 Kuyudu Mukataat.

إنّ نسبة كبيرة من دفاتر المالديين مدوّر تستعمل أرقاماً هي غير الأرقام الهنديّة المعروفة .

ما هي العناوين العامّة لمضمون صفحات هذا الدفتر(*)؟

ص ٤/ مقاطعة آل عرب موسى در عهدة سلهب آغا ملتزم مقاطعة عكّار .

ص ٥/ مقاطعة كمرك طرابلوس شام در عهدة الحاج ابراهيم آغا ملتزم كمرك مزبور من أول مارت ١١٥٢ إلى سنة كاملة .

ص ٦/ مقاطعة عكّار كاملة ، در عهدة سلهب آغا من أول مارت ١١٥٢ إلى سنة كاملة .

ص ٧/ مقاطعة طرسوس .

ص ٨/ مقاطعة كوره در عهدة مير أحمد من أول مارت ١١٥٢ حتى سنة كاملة .

ص ٩/ مقاطعة قرية «أنفة در عهدة مير أحمد ومير موسى من أول مارت سنة ١١٥٢ .

ص ١٠/ مقاطعة التزام شعرا در عهدة مصطفى آغا وحسن آغا وجه اشتراك واحد ١١٥٢ .

ص ١١/ مقاطعة ظنيّة در عهدة مقدم أحمد ملتزم نصف حصة .

ص ١٢/ مقاطعة احتساب نفس طره بلوس (كذا) شام سنة ١١٥٣ .

ص ١٣/ مقاطعة حمص .

ص ١٤/ مقاطعة صافيتا .

ص ١٥/ مقاطعة زاوية در عهدة حسن آغا وكنعان بن ظاهر أول مارت ١١٥٢ .

ص ١٦/ مقاطعة ميزان حرير نفس طره بلوس شام در عهدة (ولمرء؟) أول مارت ١١٥٢ (لا اسم) .

ص ١٧/ مقاطعة نفس جبيل وبلاد جبيل وجبه در عهدة شيخ اسماعيل بن حمادة من أول مارت ١١٥٢ .

ص ١٨/ مال مقاطعة قرية رأس وتوابعها .

ص ١٩/ مقاطعة بياض .

ص ٢٠ - ٢١/ مقاطعة البترون در عهدة شيخ علي ضامن واجب مارت سنة ١١٥٢ .

ص٢٢/ ليست هامّة .

ص ٢٣/ الزاوية .

(*) الدفتر الذي صوّرنا منه هذا الصنف. عدد صفحاته ١٢٠ ص. طوله ٣٢ سنتم. عرضه ٢/٢٣١ سنتم. ورقه صقيل مقوّى. وخطّه غير واضح إجمالاً. مع العلم أنه ليس مكتوباً بخط السياقة الذي يمتاز بشكله الهندسي وإهمال النقط ممّا يجعل قراءاته قراءة صعبة على من لم يمارسها

ص ٢٤/ مقاطعة صافيتا .

ص ٢٥ - ٢٩/ بياض .

ص ٣٠ - ٣١/ عن مال مقاطعة طرطوس عن واجب مارت سنة ١١٥٣ .

ص ٣٢ - ٣٣/ عن مال مقاطعة صافيتا .

ص ٣٤/ عن مال مقاطعة احتساب واجب مارت سنة ١١٥٣ (ربما متأخرات) .

ص ٣٥/ بياض .

ص ٣٦/ مقاطعة حمص .

ص ٣٧/ بياض .

ص ٣٨/ عن مال مقاطعة عرب آل موسى در عهدة مير سعيد سنة ١١٥٣ .

ص ٣٩/ بيضاء .

ص ٤٠ - ٤١/ عن مال مقاطعة عكار صاحب أمين عبدو الرحمن أفندي واجب مارت سنة ١١٥٣ .

ص ٤٢ - ٤٣/ عن مال مقاطعة كوره در عهدة مير علي وشيخ عساف مواجب مارت سنة ١١٥٣ .

ص ٤٤ - ٤٥/ عن مال مقاطعة زاوية من جانب شيخ ضاهر مواجب مارت سنة ١١٥٣ .

ص ٤٦ - ٤٧/ عن مال مقاطعة ظنيّة در عهدة شيخ أحمد بر واجب مارت سنة ١١٥٣ .

ص ٤٨ - ٤٩/ عن مال مقاطعة شعرا در عهدة ممنطق آغا دندش وسليمان آغا دندش بر مواجب مارت سنة ١١٥٣ .

ص ٥٠/ بيضاء .

ص ٥١/ عن مال مقاطعة ميزان حرير مواجب مارت سنة ١١٥٣ .

ص ٥٢/ بيضاء .

ص ٥٣/ عن أسكلة طرابلس (٣ أسطر فقط) .

ص ٥٤/ تتمة مقاطعة جبة .

ص ٥٥ - ٥٦/ عن مال مقاطعة جبة در عهدة أبو ناصيف ، واجب مارت سنة ١١٥٣ .

ص ٥٧/ منطقة جبيل ونفس جبيل در عهدة شيخ اسماعيل حمادة بر موجب مارت ١١٥٣ .

ص ٥٨/ بياض .

ص ٥٩/ مال مقاطعة صوباشي نفس طرابلوس الشام .

ص ٦٠/ كتابة غير مفهومة قليلة في الصفحة .

ص ٦١ - ٦٢/ بيضاء .

ص ٦٣/ مقاطعة كمرك أسكلة .

ص ٦٤/ مقاطعة كمرك أسكلة .

ص ٦٥/ مقاطعة كمرك أسكلة .

ص ٦٦/ بيضاء .

من صفحة ٦٧ حتى صفحة ٧٣ بعض الصفحات بيضاء وبعضها الآخر فيها عدة أسطر حول الحنطة والصابون .

من صفحة ٧٤ حتى صفحة ٩٩ بيضاء .

ص ١٠٠/ عدة أسطر .

ص ١٠١/ عن أموال حرير طرابلوس .

ص ١٠٢/ كتابة غير مفهومة .

ص ١٠٣/ بيضاء .

ص ١٠٤ - ١٠٥/ مقطوعات مال حرير . جردة على كلّ المقاطعات في ولاية طرابلس .

ص ١٠٦ حتى ١٠٨ مقطوعات مال جزية سنة ١١٥٣ .

ص ١٠٩ حتى ١١٣/ بيضاء .

ص ١١٤ - ١١٥/ غير مفهومة .

ص ١١٦ - ١٢٠/ بيضاء .

انطلاقاً من هذا العرض السريع لمضمون الدفتر نستنتج عدة أمور:

١ - وجود المقاطعات الجغرافية التالية التي تشكّل جزءاً من ولاية طرابلوس - عكار - طرطوس - كورة - قرية انفة - شعرا - ظنية - نفس طرابلوس - حمص - صافيتا - زاوية - مقاطعة نفس جبيل وبلاد جبيل - مقاطعة البترون - مقاطعة بعض البترون - جبة .

٢ - وجود مقاطعات لأسماء موارد اقتصادية معيّنة: مقاطعة كمرك طرابلوس شام - مقاطعة ميزان حرير نفسه طره بلوس شام .

٣ - وجود مقاطعات بأسماء علم أو موظفيين عسكريين: مقاطعة آل عرب مسوى - مقاطعة صوباشي نفس طره بلوس شام - مقاطعة حمادة (ص ٢٠) .

٤ - يمكن أن نتعرّف على أسماء الملتزمين قبيل العامين (١١٥٢ - ١١٥٣ هـ/ ١٧٣٩ - ١٧٤٠) .

- سلهب آغا ملتزم مقاطعة عكار (١١٥٢) .
- الحاج ابراهيم آغا ملتزم كمرك طرابلوس شام .

- الأمير أحمد ملتزم مقاطعة كورة (سنة ١١٥٢).
- الأمير أحمد والأمير موسى ملتزما قرية أنفة.
- مصطفى آغا وحسن آغا ملتزما مقاطعة شعرا (سنة ١١٥٢).
- المقدّم أحمد ملتزم نصف حصة مقاطعة الظنيّة.
- حسن آغا وكنعان بن ظاهر ملتزما مقاطعة الزاوية.
- الشيخ اسماعيل بن حمادة ملتزم نفس جبيل وبلاد جبيل وجبّة بشرّي (١١٥٢).
- الشيخ علي ضامن ملتزم مقاطعة البترون.
- حسين حيدر (حمادة على الأرجح) ملتزم مقاطعة بعض البترون.
- المير سعيد ملتزم مقاطعة عرب آل موسى (١١٥٣).
- أمين عبدو الرحمن أفندي ملتزم مقاطعة عكار (١١٥٣).
- الشيخ ضاهر ملتزم مقاطعة الزاوية (١١٥٣).
- الشيخ أحمد ملتزم مقاطعة الظنيّة (١١٥٣).
- ممنطق آغا دندش وسلمان آغا دندش ملتزما مقاطعة الشعرا (١١٥٣).
- الشيخ اسماعيل حمادة ملتزم جبيل ونفس جبيل (١١٥٣).

٥ - تغييراً في الملتزمين بين سنة وأخرى:

- في مقاطعة عكّار حلّ أمين عبدو الرحمن أفندي عام ١١٥٣ مكان سلهب آغا الذي كان ملتزماً للمقاطعة نفسها عام ١١٥٢.
- في مقاطعة الشعرا حلّ الدندشان (ممنطق وسلمان آغا) محلّ مصطفى وحسن آغا.
- لا ندري إذا كان المقدّم أحمد الذي كان ملتزما نصف مقاطعة الظنيّة عام ١١٥٢ هو نفسه الشيخ أحمد ملتزم المقاطعة كلّها عام ١١٥٣.
- مقاطعة ال عرب موسى أصبحت في يد المير سعيد عام ١١٥٣ بعدما كانت عام ١١٥٢ في يد سلهب آغا.
- الشيخ ظاهر أصبح وحده ملتزماً على الزاوية عام ١١٥٣ بعدما كان يتقاسم الالتزام نفسه مع حسن آغا عام ١١٥٢.

رابعاً: خلاصات من خلال خمس وثائق تضمّنها الدفتر رقم ٦٧٤٧:

ما هي الخلاصات التي نستنتجها انطلاقاً من بعض الصفحات التي سمح لنا بتصويرها.

١ - حول مقاطعة الكورة (ص ٨) بعهدة المير أحمد

أ - هناك اشارة إلى أن الشرطنامة توجب دفع ١٨ ألف (قرش) على الأرجح.

ب - ثمّة إشارة إلى زيادات يجب دفعها فوق هذا المبلغ فيصل إلى ٣١٥٠٠ قرش.

ج - ثمة جدولان واحد بالمدفوعات على الأرجح، لجهة اليمين وحسب التواريخ (١٣ دفعة يبلغ المجموع: ١٠,٠٣٠ قرشاً وهذا المبلغ يتعهد به المير أحمد.

د - أمّا المير علي فيتعهّد مع المير قاسم بدفع ١٠٠٠ قرش.

هـ - في الجدول المقابل لائحة بما قدّمه بعض الأمراء ممّا يوصل المبلغ إلى ١٨ ألفاً.

٢ - حول مقاطعة البترون (ص ٢٠)

أ - المبلغ المتوجب دفعه ٦٠١ قروش يضاف إلى ذلك ٣٤٩ (فندقلي).

ب - المقاطعة بعهدة الشيخ علي ضامن عن واجب مارت سنة ١١٥٢ هـ (١٧٣٩م).

ج - ثمّة إشارة إلى مقاطعة بعض البترون بعهدة حسين حيدر عن واجب مارت سنة ١١٥٢.

د - المبلغ المتوجب تسليمه ١٠٧٤ قرشاً. يضاف إليه مبلغ ٧٩٨ (فندقلي).

هـ - مقاطعة حمادة وهي التزام للشيخ حسن حيدر حمادة. تقدّم تمسكاً ختم حسن حيدر نفسه ومبلغ التمسك ٧٤٨.

٣ - حول مقاطعة الجبّة بعهدة أبو ناصيف واجب مارت ١١٥٣ (ص ٥٥ و٥٦)

أ - ثمّة لائحة مبوبة مختلطة مسيحيّة وإسلاميّة ومقابل كلّ اسم تاريخ زمني ومبلغ معيّن من المال يجب تقديمه.

ب - عدد الأسماء ٩٣ تقريباً بعضها مكرّر مرّات عدّة.

ج - مجموع المبلغ المتوجب دفعه من قبل مقاطعة الجبّة هو ٩٩٢٢ قرشاً[١٥].

٤ - حول مقاطعة جبيل ونفس جبيل بعهدة الشيخ اسماعيل حمادة[١٦] واجب مارت ١١٥٣ (ص ٥٧)

مجمل المبلغ المتوجب دفعه من قبل هذه المقاطعة هو في حدود ١٣٩٥٧ قرشاً.

خامساً: بين نظام الالتزام ونظام التيمار في شمالي لبنان:

إنّ مقارنة سريعة بين نظامي التيمار والالتزام تحملنا على ايراد بعض الملاحظات الأساسيّة:

١ - في نظام التيمار ثمّة دقّة في تسجيل المناطق التابعة للدولة بشكل منتظم. وثمّة عناية في احصاء السكّان والحياة الاقتصاديّة. وكان يتمّ تدوين هذه المعلومات من قبل كتّاب الولاية الذين كان يطلق على كلّ منهم «محرّر ممالك». ويترتّب على هذا الاحصاء، الذي يجري كل ثلاثين سنة تقريباً، تحديد عدد السكان القادرين والمكلّفين بدفع أنواع معيّنة ينصّ عليها في «قانون نامة» كلّ لواء أو ولاية على حدة. كما كان الكتّاب يعيّنون أوضاع الأراضي وأنواع محاصيلها وما إلى

ذلك[١٧] . لا بل كان هناك تدوين لأسماء الذكور أرباب الأسر (الخانة) والراشدين العازبين (مجرّد) وتفاصيل الضرائب على الإنتاج والحيوانات (زيت ، عنب ، نحل ، معزة ، معاصر الزيت ، والعنب ، الحرير ، الطواحين ، الحبوب إلخ . . .) .

بينما في نظام الالتزام - على الأقل بالنسبة لما أطلعنا عليه من وثائق متعلّقة بولاية طرابلس - لم يكن ثمّة احصاءات دقيقة للسكان ، وكذلك لم يكن هناك معرفة مفصّلة لمجمل الأوضاع الإنتاجيّة على الصعيد الاقتصادي . وانطلاقاً من الدفتر الذي استعرضنا بعض مضمونه نلاحظ عدم الدقّة في التسجيل والسهو والاهمال والركاكة في اللغة والفوضى في التنظيم الأمر الذي يدلّ على سوء الادارة وتقصير لدى الكاتب .

٢ - في نظام التيمار ثمّة سلطة مباشرة من قبل الدولة عبر التيمارجيين على المنطقة ، بينما مع نظام الالتزام هناك سلطة بالوكالة عبر الملتزمين الذين غالباً ما كانوا من الأعيان المحليين .

٣ - في نظام التيمار هناك مبالغ من الضرائب محدّدة على أراضي أو دكّان أو مرفق اقتصادي ويجب دفعها مباشرة لممثلي الدولة ، (أي أصحاب التيمار والزعامات) بينما في نظام الالتزام هناك مبالغ إجماليّة من الضرائب خاضعة لمبدأ العرض والطلب والزيادة والنقصان تبعاً لتوافر الملتزمين أو تقاعسهم .

٤ - في ظلّ نظام الالتزام أصبح وضع الفلاح أسوأ حالاً ممّا كان في ظلّ نظام التيمار . فلم يكن على الفلاح في نظام المقاطعة أو الالتزام أن يدفع الضرائب العاديّة المستحقّة للدولة فحسب ، بل كان عليه كذلك أن يدفع للملتزمين فرائض قرّرها العرف . وإذا أدخلنا في اعتبارنا ضعف الحكومة المركزيّة من الناحية الادارية أمكننا أن نتصوّر ، دون مشقّة ، ذلك الموقف الجائر الذي كان يتخذه أولئك الملتزمون .

٥ - لقد تيسّر للأثرياء ولذوي النفوذ في الأقاليم في القرن السابع عشر أن يجمعوا الأرض عن طريق نظام المقاطعة ، وأصبحوا من القوّة بحيث اتخذوا لأنفسهم بعض السلطات الحكومية . ونتيجة لهذا ظهرت في الأقاليم أريستقراطيّة زراعيّة من الأعيان . بل أسّس بعض هؤلاء الأعيان أسراً حاكمة ، وأصبحوا خصوماً للحكومة السلطانيّة . وقد كانت لهم جيوشهم الخاصّة وكانوا يتقاتلون فيما بينهم . وهكذا تحطّم البناء السياسي والاجتماعي بانهيار نظام التيمار ، وظهرت هذه الحالة ، ليس فقط في ولاية طرابلس ، بل في جميع أجزاء الامبراطوريّة العثمانيّة من مصر الى الدانوب[١٨] .

٦ - إن مقارنة سريعة بين الضرائب المجموعة من نواحي بشرّي والكورة والبترون وجبيل ، في ظلّ نظام التيمار ، مع الضرائب التي أشرنا إليها في الوثائق المبيّنة أعلاه ، تبيّن بوضوح مدى الانهيار الذي وصل إليه الوضع الاقتصادي والاجتماعي في ظلّ نظام الالتزام .

مقارنة بن الآقجة والقرش الأسدي والبارة

السنة	coins / 100 Di Hams	Weight GR
١٧٠٥	1,900	0,169
١٧٤٠	———	0,180

السنة	قرش أسدي	بارة	آقجة
١١٠٥ هـ أو ١٦٨٩ م	٢٠,٧٩	٩,١٣	—
١١٠٤ هـ أو ١٦٨٨ م	١٣,٥٥	١٠,٨٦	٠,٠١

من مقال لخليل ساحلي أوغلو، راجع

M.A. COOK, Studies in the économic history of the middle - East, Oxford Uni. Press, New York Toronto 1970, p. 302 - 303.

(١) الباشبكنليك أرشيفي، الطابو دفتري رقم ٦٨.

(٢) مع العلم أنّ ثمّة نواح أخرى في ولاية طرابلس، ضمن سوريا الحاليّة، منها نواحي حصن الأكراد، مناصف، صافيتا، ميعاد، خوابي، ضاحية قدموس، عليقة، منيقة، كهف، قليعة، مرقب، وبانياس، جبلة، بلاطنس، صهيون، لاذقيّة.

(٣) جب وبوون، المجتمع الإسلامي والغرب، ترجمة د. أحمد عبد الرحيم مصطفى، ج ٢، دار المعارف بمصر، ص ٥٥.

(٤) المرجع نفسه، ص ٥٦.

(٥) Nicoara Beldiceanu, Le Timar dans l'Etat Ottoman, 1980, P. 38.

(٦) يمكن مراجعة المرجع السابق لمزيد من التفصيل.

(٧) د. شارل عيساوي، التاريخ الاقتصادي للشرق الأوسط وشمال افريقيا، ترجمة سعد رحمن، دار الحداثة، ١٩٨٥، ص ٢٥٥.

(٨) المرجع السابق، ص ٢٥٦.

(٩) الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة، جمع وتقديم محمد خلف الله، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، لا تاريخ، ص ٤٤٩.

(١٠) Encyclopédie de l'Islam, N.E. T III, Paris, 1971, P. 1182.

(١١) سعيد الشرتوني، أقرب الموارد في فصح العربية والشوارد، ج ٢، المطبعة الشرقية، بيروت، ١٨٨٩، ص ١١٤٠.

(١٢) ناصر الدين سعيدوني، نظرة في أراضي الميري ببلاد الشام - دراسة نشرت في المؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام، ج ١، ص ٣٧١.

(١٣) من مقال لخليل ساحلي أوغلو، المؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام، جامعة دمشق، ج ١، لا تاريخ، ص ١٤٣.

(١٤) يمكن مراجعة عدّة دراسات للمؤرّخ التركي الكبير اينالجيك.

(١٥) لكي نأخذ فكرة عن القوّة الشرائيّة للقرش نورد النص التالي (أوّل ك١ ١٧٢٩).
«القمح عندنا بقرشين وربع للشنبل الواحد . . . والحرير ما له مشترى، والقرش عزيز ورطل الحرير بعشرة قروش. والمعاملة بين الناس بالحرير . . .» مجموعة اللبودي، تقديم الأباتي بطرس فهد، الكسليك، ١٩٨٨، ص ١٢٦.
وكذلك جاء في «الغرر الحسان» للأمير حيدر الشهابي، في أخبار سنة ١١٦١هـ. «وفي هذه السنة كان غلاء عظيم حتى انباعت غرارة القمح باثنين وستّين قرشاً. وغرارة الشعير بأربعة وعشرين قرش . . .»
لبنان في عهد الأمراء الشهابيين، طبعة رستم والبستاني، ج ١، بيروت، ١٩٦٩، ص ٣٧.

(١٦) في هذه السنة (١٧٣٨) الشيخ اسماعيل حمادة تقوّى على أولاد الشيخ أحمد، وحكم الجبّة. وكان الدلول قدّامه المطران الياس. وبعد ان طفّروا المشايخ أولاد الشيخ أحمد صار ضيم وضيق على البلاد، وتهتّك الذي ما صار مثله في جبة بشراي أصلاً. وقد اجتهد حضرة المطران وحزبه على دهك (هدم) ديورتنا التي في الجبّة، والله ما قدّره على ذلك، بما أنه ما انتفع بقدر ما انضرّ هو، ولكن ديورتنا خسروا كثيراً. والآن البعض من المشايخ وأولاد الشيخ أحمد اصطلحوا مع الشيخ، والبعض لا، وسليمان باشا العظم انعزل من الشام والأمير ملحم الشهابي حكم بغصب عن باشا صيدا الذي هو ابراهيم باشا ابن العظم، ومشايخ الغساطنة مفتونين مع بعضهم، مثل ما يكون الله تخلّى عنهم».
مجموعة اللبودي، المرجع السابق، ص ٢٨٠.
وفي السنة نفسها ١٧٣٨ ذكر اللبودي عن الشيخ اسماعيل حمادة أنه «حكم الجبّة (بشراي) في هذه السنة وطرد مشايخها. وهذه التدابير خسّرت أهل الجبة أنوف من خمسة عشر كيساً عن المعتاد . . .»، المرجع السابق، ص ٢٩٦، وفي ٢٢ ك٢ ١٧٤٠ جاء في مذكّرات اللبودي « . . . وناهيك من بلاد مبلبل والغرش يلعب»، المرجع نفسه، ص ٣٥٦.

(١٧) محمد ايشرلي ومحمد تميمي، أوقاف وأملاك المسلمين في فلسطين، استانبول، ١٩٨٢، ص. ط.

(١٨) الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة، المرجع السابق، ص ٤٥١.

فهرس الكتاب